20me. année No 989

Le Caire 16 — 6 — 1952

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٩٨٩ «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ رمضان سنة ١٣٧١ — ١٦ يونية سنة ١٩٥٢ — السنة العشرون

ضريبة الذل ...

للأستاذ سيد قطب

بعض النفوس الضعيفة يخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة، هربا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة!

هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة. إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة. يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون

وإنهم ليحسبون أنهم ينالون فى مقابل الكرامة التى يبذلونها قربى ذوى الجاه والسلطان حين يؤدون إليهم ضريبة الذل وهم صاغرون. ولكن كم من تجربة انكشفت عن نبذ الأذلاء نبذ النواة، بأيدى سادتهم الذين عبدوهم من دون الله

كم من رجل باع رجولته، ومرغ خديه فى الثرى تحت أقدام السادة، وخنع وخضع، وضحى بكل مقومات الحياة الإنسانية، وبكل المقدسات التى عرفتها البشرية، وبكل الأمانات التى ناطها الله به أو ناطها الناس .. ثم فى النهاية إذا هو رخيص رخيص، هين هين، حتى على السادة الذين استخدموه كالكلب الذليل؛ السادة الذين لهث فى إثرهم، ووصوص بذنبه لهم، ومرغ نفسه فى الوحل ليحوز منهم الرضاء!

كم من رجل كان يملك أن يكون شريفا، وأن يكون كريما، وأن يصون أمانة الله بين يديه، ويحافظ على كرامة الحق وكرامة الإنسانية، وكان فى موقفه هذا مرهوب الجانب، لا يملك له أحد شيئا، حتى الذين لا يريدون له أن يرعى الأمانة، وأن يحرس الحق، وأن يعتز بالكرامة، فلما أن خان الأمانة التى بين يديه، وضعف عن تكاليف الكرامة، وتجرد من عزة الحق، هان على الذين كانوا يهابونه، وذل عند من كانوا يرهبون الحق الذى هو حارسه، ورخص عند من كانوا يحاولون شراءه؛ رخص حتى أعرضوا عن شرائه، ثم نبذ كما تنبذ الجيفة، وركلته الأقدام، أقدام الذين كانوا يفدونه ويعنونه، يوم كان له من الحق جاه، ومن الكرامة هيبة، ومن الأمانة ملاذ

كثير هم الذين يهوون من القمة إلى السفح، لا يرحمهم

أحد ، ولا يترحم عليهم أحد . ولا يسير في جنازتهم أحد ، حتى السادة الذين في سبيلهم هووا من قمة الكرامة إلى سفوح الذل ، ومن عزة الحق إلى مهاوى الضلال

ومع تكاثر العظات والتجارب . فإننا ما نزال نشهد فى كل يوم ضحية . ضحية تؤدى ضريبة الذل كاملة . ضحية تخون الله والناس ، وتضحى بالأمانة وبالكرامة . ضحية نلهث فى إثر السادة ، وتلهث فى إثر المطامع والمطامح ، وتلهث وراء الوعود والسراب .. ثم تهوى ، وتنزوى هنالك فى السفح خانعة مهينة ، ينظر إليها الناس فى شماتة ، وينظر إليها السادة فى احتقار

لقد شاهدت فى عمرى المحدود — وما زلت أشاهد — عشرات من الرجال الكبار يحنون الرءوس لغير الواحد القهار ، ويتقدمون خاشعين ، يحملون ضرائب الذل تبهظ كواهلهم ، وتحنى هاماتهم ، وتلوى أعناقهم وتنكس رؤوسهم .. ثم يطاردون كالكلاب ، بعد أن يضعوا أحمالهم ، ويسلموا بضاعتهم ، ويتجردوا من الحسنيين : فى الدنيا والآخرة ، ويمضون بعد ذلك فى قافلة الرقيق لا يحس بهم أحد حتى الجلاد !

لقد شاهدتهم وفى وسعهم أن يكونوا أحراراً ولكنهم يختارون العبودية ، وفى طاقتهم أن يكونوا أقوياء ، ولكنهم يختارون التخاذل ، وفى إمكانهم أن يكونوا مرهوبى الجانب ، ولكنهم يختارون الجبن والمهانة .. شاهدتهم يهربون من العزة كى لا تكلفهم درهما ، وهم يؤدون للذل دينارا أو قنطارا .. شاهدتهم يرتكبون كل كبيرة ليرضوا صاحب جاه أو سلطان ، ويستظلوا بجاهه أو سلطانه وهم يملكون أن يرهبهم ذوو الجاه والسلطان !

لا بل شاهدت شعوبا بأسرها تشفق من تكاليف الحرية مرة ، فتظل تؤدى ضرائب العبودية مرات . ضرائب لا تقاس إليها تكاليف الحرية . ولا تبلغ عشر معشارها . وقديما قالت يهود لنبيها : « يا موسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ... ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا هاهنا قاعدون » .. فأدت ثمن هذا النكول عن تكاليف العزة ، أربعين سنة تتيه فى الصحراء تأكلها الرمال ، وتذلها الغربة ، وتشردها المخاوف .. وما كانت لتؤدى معشار هذا كله ثمنا للعز والنصر فى عالم الرجال !

إنه لابد من ضريبة يؤديها الأفراد ، وتؤديها الجماعات ، وتؤديها الشعوب . فإما أن تؤدى هذه الضريبة للعزة والكرامة والحرية ، وإما أن تؤدى للذلة والمهانة والعبودية ! والتجارب كلها تنطق بهذه الحقيقة التى لا مفر منها ولا فكاك

فإلى الذين يفرقون من تكاليف الحرية ، إلى الذين يخشون عاقبة الكرامة ، إلى الذين يمرغون خدودهم تحت مواطئ الأقدام ، إلى الذين يخونون أماناتهم ، ويخونون كراماتهم ، ويخونون إنسانيتهم ، ويخونون التضحيات العظيمة التى بذلتها أممهم ، وبذلتها الإنسانية لتحرر وتتخلص

إلى هؤلاء جميعا أوجه الدعوة أن ينظروا فى عبر التاريخ وفى عبر الواقع القريب، وأن يتدبروا الأمثلة المتكررة التى تشهد بأن ضريبة الذل أفدح من ضريبة الكرامة ، وأن تكاليف الحرية أقل من تكاليف العبودية ، وأن الذين يستعدون للموت توهب لهم الحياة ، وأن الذين لا يخشون الفقر يرزقون الكفاية ، وأن الذين لا يرهبون الجاه والسلطان يرهبهم الجاه والسلطان

ولدينا أمثلة كثيرة وقريبة على الأذلاء الذين باعوا الضمائر وخانوا الأمانات وخذلوا الحق وتمرغوا فى التراب ، ثم ذهبوا غير مأسوف عليهم من أحد ، ملعونين من الله ! ملعونين من الناس . وأمثلة كذلك — ولو أنها قليلة — على الذين يأبون أن يذلوا ، ويأبون أن يخونوا ، ويأبون أن يبيعوا رجولتهم بيع السماح . وقد عاش من عاش منهم كريما ، ومات من مات منهم كريما

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

سيد قطب

من وحى الغمزة القاصية :

قطيع الصيف فى باريس

للدكتور على شرف الدين

فى كل عام — وفى مستهل الصيف خاصة — يقبل على باريس هذا القطيع من أطراف أوروبا . مختلفات الجنس واللغة، متباينات الأعمار والثقافة ، فى عيونهن غرارة ، وخلف الأجفان مستقبل حافل بالدموع ، ما عرفنه ولا فكرن فيه، وفى إشاراتهن براءة ، وما تصيب الفواجع غالبا غير القلب البرئ ، كأنما تحب السماء هذه القلوب ، فهى تمتحنها بالآلام لتزيد فى طهارتها قبل أن ترفع إليها

أطلقهن الرعاة من مراعيها الآمنة ، وأبحن لهن — ومن الناشئات — أن يقبل عليهن السماء ، وهن فى غير مراح الحقل بعيدات عن سمع الراعى ونظره ، وما بالغ من أطلقهن فى الثقة ، ولا أسرف فى حسن الظن ، فى قلوبهن من وحى الفطرة الأصيلة عصمة ، وفى آذانهن من ترانيم الكنيسة صدى رائع يغلب كل الأصداء ، ولكنها سنة الشباب والحب ، جديدة فى كل عصر ، وإن أعادت نفس القصة فى كل جيل

أقامت لهن باريس معارض للفن ومناهل للأدب ، وحشدت لهذا أقوى ما يأسر النفس والعين . يمضى الصيف وهى مع الرعيل فى الغدو والرواح ، يهديها رسول الأمن فى الجماعة ، ويملأ عينيها نور الفرح بما ترى وتسمع ، لا تلبى غير نداء المعرفة، ولاتغشى غير المواطن الآمنة ، فى صالات الوسيقى، وفى لكسمبور ، وتحت قباب البانثيون . . .

فإذا تقدمت بهن الإقامة رأيت شيئا جديداً : رأيت أن القطيع قد استحال إلى أسراب ، ثم استحال السرب أخيراً إلى « الغنمة القاصية » ؛ ولكن فى صحبة جديد ، ولا تشك حين تراها فى أن ملاكا كما يحرس هذا الحب الجديد ، فما تزال سمات الفطرة فى الوجوه تنادى بنبل العاطفة ، وما يزال فى العيون شعاع يكشف عن قلب برئ . ومن ذا الذى لا يبارك على حب تذ كيه غرارة السن ، ويرعاه من العاطفة ميل ساذج صريح ؟

ويمضى الصيف فيبقى نصف القطيع قائما فى باريس لا يريم .

ويتقدم الزمن قليلا ، فإذا جدة الحب قد أخذت تبلى، وإذا بهجة اليسار قد أخذت تنطفئ ، ليأخذ مكانها ظلام الحاجة، وإذا هذه الغلائل البيضاء التى كانت ترف بالأمس على هيا كل من النور كما يرف جناح الحائم السابحة فى صبح الربيع . . قد استطال الفقر فى ذيولها ، كما استطال الحزن والألم فى هيا كلها . بقية من جمال يغزوها الهم الناصب ، والضنى الملح، فى انتقال مفاجئ من حياة إلى حياة ، ما أبعد كلا منهما عن الأخرى

هذه الدلالة التى أ كرمها الفلاح ، وأقامها فى الحقل (الآمن) تستمل حياة الدعة والسعادة ، وتضفى على الحقل ربيعا أجمل من ربيع مروجه ، قد أصبحت تعمل فى حقل آخر ، عمل الأجير لا المالك ، ويهولك ما ترى حين ترى أن هذه الدلالة التى لم تجاوز العشرين قد أخذت تؤجر فى الحقول . . . لم تعد تصغى للموسيقى ولا تغشى محاضرة ، ولا تحفل لهذا التاريخ الرابض فى معالم باريس ، ولكنها فى مقاهى سان جرمان مع الناضبات من الأهل ، الساخطات على الحياة ، وأخيراً فى كهوف الليل الحمراء على ضفة السين . . .

إن لها شخصية كما يدعى صاحبها الذى أطلقها من الرعى « الآمن » فهو لا يسأل ـ ولا يجب أن يسأل ـ كيف تعيش ؟ وهى « الحضرية » الدلالة التى ما عرفت العمل ، وما خلقت إلا لتضفى النور على ما حولها ...إنها شخصية تمنحها إياها الحضارة فى تمام العشرين ، وقد نسيت الحضارة أن الزهرة هى الزهرة ، فى أول الربيع ، وفى عنفوانه ، وفى نهايته ، وأن الطبيعة عرفت هذا فنثرت من حولها الشوك لترهب القلوب الطامحة ، وتدفع الأيدى من جناها . وتمر بك هذه الدابلة التى كنت تسعد بالنظر

إليها . فتعاف أن تراها رحمة وإشفاقا ، ولكأن هذا العربى قد أرادها فى هذه الصورة القوية من شعره

كنت مشغوفا بكم إذ كنتم ... شجراً لا تبلغ الطير ذراها
لا تبيت الليل إلا حولها ... حرس ترشح بالموت ظباها
وإذا مدت إلى أغصانها ... كف جان قطعت دون جناها
فتراخى الأمر حتى أصبحت ... هملا يطمع فيها من يراها

ويح المسيحية وويح الشرق منك يا أوربا ! ألا تذكرين حديث « الغنمة الضالة » فى الإنجيل ؟ ألم يطالب إلى الراعى أن يبحث عنها حتى ولو تعرض القطيع كله للضياع ؟ إنه يعلمك كيف تكون القيم الإنسانية عندك خيراً من « المصلحة » وكيف تحرصين على الاستجابة لهواتف الروحية ، وإن لم تدع إليها « المنفعة » . إن القطيع من غير شك خير من الواحدة ، ولكنها الساعة الرحيمة التى تكسر كل مقاييس الموازنة ، وتحطم كل موازين المقارنة

ما إذا « الشخصية » أو « الحرية » أو « سن الرشد » وغير هذا من الكلمات التى تزجينها فى بطون القواميس ـ تقيمين منها قانونا حين شعرت بالاستخذاء والظلم ، سن الرشد !! المعروف أو سن الرشد الحقيقية تبتدئ منذ الميلاد ، وتنتهى غالبا قبيل العشرين أو عندها ، وعند العشرين تبتدئ سن الرعاية والملاحظة . . .

على أن لك فى سن الرشد رأيا غريبا ـ رأى يتغير حسب المصلحة والعصبية الشعوبية : تعطين سن الرشد للأفراد ، وتحرمين منها الجماعات ، تعطينها للغنمة القاصية وتمنعين منها الجماعة تستمد القوة والرشد من جماعتها وائتلافها . لكم تعمدين إلى القطيع تمزقين من وحدته حتى استحال إلى غنمات قاصية لاتكاد إحداها تسمع نداء الأخرى ، ثم زعمت لنفسك عليها سلطانا فى دعوى باطلة مزورة ، تارة (برسالة الحضارة) وأخرى بأنها لم تبلغ سن الرشد ، وقد كان فى اجتماعها وتآلفها الرشد كل الرشد ، ولكنها المصلحة التى أنكرت فيها حقوق الإنسانية

ويح المسيحية وويح الشرق منك يا أوروبا !

أسرفت فى السرور حتى قتلت فى نفوس أبنائك الإحساس بالسرور ، وأقمت للوثنية هيا كل مكذوبة ، تقدمين لها قرابين دامية ، هى أشلاء ضمير ممزق فى معركة صرعت فيها (المنفعة) كل هواتف الروح ، وما رضيت أن تشهدى وحدك هذه الأصنام بالأمس فى قصر شايو ، ولكنك تدعين معك فرائس السياسة ، وغنائم القوة ، ليشهدوا مصارع حقوقهم وأمانيهم . . .

حتى (الإنيسكو) هذا الرجل الوقور ، سخرت منه أوربا و (ضحكت عليه) فغرزت فى عمامته أعلام الشعوب ترفرف متساوية متكافئة . نعم نعم ترفرف متساوية متكافئة فى (الهواء) تقولين له : (ما أحوجنا إلى رأيك فى التربية والتعليم) ثم تسرين له فى أذنه : (رسالتك شاقة ، وإنك لتعرف ما بين السطور ، فكن ماهر النفاذ ، لطيف الأداء ، فما أحوجك إلى (الكياسة) لتصل من التربية إلى (. . . .) فيبتسم هذا الرجل الوقور بينما يفرك أطراف لحيته المستعارة « إننى خبير (بالسجمة) المقصودة ، وما أيسر أن تجمعهم على ضرب واحد من التعليم ، ومنهج متحد من التربية ، حتى تلتقى الأهواء ، وتتآلف النزعات ، وهناك تتم (السجمة المفقودة) ، وقد نسيت أوروبا ونسى معها هذا الرجل شبه الوقور أن الشعوب لم تكن شعوبا لأن الأنهار تفصلها أو لأن الجبال تحد مابين تخومها ، ولكن الشعوب كانت شعوبا لأن لكل شعب أمنية يفيض بها قلبه ، أمنية تستغل حياته وتأخذها من أقطارها لا تلبث أن تستحيل إلى مادة حية فى أغنية خالدة مقدسة . مالى أنسيت الحديث ؟ لقيتها مرتين مواظبة على محاضرات (أحلام معتزل) لجان جاك روسو . إنها تلتمس عنده فى ساعات عزلته ، ما يمسح على جراح نفسها . إنها قد نسيت الماضى ، الماضى البعيد والقريب ، وما كانت تحب أن تثير هذى الذكرى ، فإنها قد تجاوزت منطقة الألم ، واستراحت إلى نسيان يوشك أن يسبغ الطمأنينة والهدوء على قلبها ، وكانت نفسها صحيحة لم تنكسر ، مشرقة لم تنطفئ ، وإن كان يسبح فى جبينها الهادئ شعاع

شاحب ترف على حواشيه ذكريات خافتة ، تدافعها بالصبر والأمل ، وقوة الإيمان بحياة جديدة

وكان شأنى يضيق بمعاونة تفنيها ، ولم أجد غير سيدة تركية هى وزوجها مثل عال لحضارة الإسلام فى باريس ، قلت لها : إنها كما ترين حزينة كسيرة وما أحسبها تحسن الكثير من عمل المنزل ، وما أحسبها إلا حملا عليك لن تضيقى به ، ولها من ثقافتها فى منزل شرقي ما يهيئ لها الحياة فيه ، فطالعت السيدة أسارير وجهها ، فلم تشهد تمردا ، ولم تر أثرا لهذه النكسة التى تطبع على وجوه المغلوبين فى حياتهم الساخطين عليها ، فابتدرت قائلة (فابنتى إليها منذ اليوم) ثم استدركت مستعجلة (معلمتها لا خادمتها) ثم التفتت إلى زوجها كى تطمئنه على نهوضها بحياتها (وعندى لها من ستسعد بهن ويسعدن بها ، وان تضيق بحياتها من نشأت فى سويسرا الفرنسية . .)

مضت أيام لقيتهم بعدها ، وكان السيد التركى كعادته يقضى الساعات فى مكتبته ، رأيته أشبه ما يكون بالمستغرق فى حلم . فلم أشأ أن أقطع عليه تأمله ، حتى انتبه متهلل الوجه سروراً « إنه شعر حسن جميل » قلت لمن ؟ قال لشاعر تركيا ارف حكمت المرسكى ، ثم أقبل يقرأ ، ولكن صوتا آخر قطع عليه قراءته ، صوت أحسب أنى سمعته قبل اليوم ، فاتجهت نحوه فإذا فى الحجرة القريبة منا قد جلست هيلين وإلى جوارها طفلة فى العاشرة من عمرها ، ومن حولها ثلاثة من فتيات تركيا الحديثة، أقبلن للدراسة فى باريس ، ولافنى لهن من دراسة اللغة ، سمعتها تملى عليهن قطعة لأندريه جيد ، يصف فيها سمات الإدراك والفهم ، تجرى فى أسارير طفلة بكماء قام على تربيتها قس سويسرى ، حتى أدركت الأصوات وفهمت الحديث يجرى من حولها « ... لقد نبضت سماتها بالحياة فجأة ، وجرى فى جبينها إشراق أشبه ما يكون بالشعاع الذى يسبق الفجر فى أعالى الألب والذى ترف له القمة المتوجة بالثلوج .. لم يكن ابتساما ، ولكنه لون من خواطر المتصوفة ... لم يكن قط ما زادها فى هذه اللحظة معرفة وإدراكا أكثر منه حبا وهياما ... »

قلت للسيد « لست أدرى أيهما خير من الآخر : الباستير السويسرى مع جرترود ، أم السيد التركى مع هيلين ؟ » قال « الباستير من غير شك لأن جرترود قد خرجت على يديه من الصمت إلى الإفصاح.. أما أنا فلم أصنع إلا ما يجب لها ، وما هو من حقها فى الحياة ، وخير منهما جميعا المرسكى الشاعر ، ثم أعاد إلى يده ديوانه وأخذ يترجم عن التركية :

« ليس حتما أن تنتقل النفس من النور إلى الظلمة، لأن النور طبيعتها فغيم التحول وهى مستريحة إليه » « ومن الحتم أن تنتقل من الظلمة إلى النور ليس فقط لأنهـــا تشعر بالغربة والإيحاش ، ولكن لأن وطنها الأول يحمى هو الآخر رعاياه »

باريس **على شرف الدين**

دكتور فى الأدب الفرنسى البحت من السوربون

فضل المدنية العربية
على المدنية الغربية

للدكتور فيليب حتى
أستاذ التاريخ بجامعة برنجستون بالولايات المتحدة

خلاصة موجزة لسبع محاضرات ألقاها الأستاذ باللغة الإنجليزية في جامعة سان باولو

٥ — نهوض الشعوب العربية الحديثة

العالم العربي قطعة متصلة تمتد من مراكش على الأتلنتيكي غرباً إلى العراق على خليج فارس شرقاً تجمعها اللغة والثقافة . وهي تتألف من وحدات أربع : إفريقية الشمالية ، مصر ، الجزيرة العربية، والهلال الخصيب

فأفريقيا الشمالية هي من حيث الجغرافية جزء من القارة الإفريقية، ومن حيث الثقافة والتاريخ جزء من الشرق الأدنى . وهي تتميز عن غيرها من الوحدات العربية بقربها من أوربا وبعدها عن قلب الإسلام وقلة الدم العربي في سكانها وكثرة المستعمرين الأوربيين المستوطنين فيها مما جعلها تسير في طريق لنفسها . وهذه الوحدة الإفريقية هي الأولى التي وقعت تحت النفوذ الأوربي السياسي وانفصلت عن جاراتها المسلمات . فالروح القومية العربية للآن لم تبلغ فيها حداً عالياً

وكانت الجزائر أول بقعة فيها احتلها الأوربيون وهم الفرنسيون وذلك عام ١٨٣٠ . وتبعها تونس التي احتلها الفرنسيون عام ١٨٨١ . أما مراكش فتقاسمها الفرنسيون والإسبان في بداءة القرن العشرين ؛ وبقيت طرابلس الغرب في حوزة الأتراك العثمانيين إلى عام ١٩١٢ عندما احتلها الطاليان وأطلقوا عليها الاسم الروماني القديم ليبيا . وستكون ليبيا أول بلاد من هذه الوحدة تتحرر وتستقل بفضل قرار من الأمم المتحدة يقضي بذلك في أول كانون الثاني من عام ١٩٥٢

ومصر من حيث الجيولوجيا والجغرافيا جزء من إفريقية ومن حيث التاريخ والثقافة جزء من آسيا الغربية . فمصير مصر في كل أدوارها كان مرتبطاً بالبلدان في شرقيها لا في غربيها . وهي باعتبار سكانها (٢٠٠٠٠٠٠٠) وخصب أرضها وغنى أبنائها في مقدمة الدول العربية وتطامح إلى الزعامة بينها . وكان الإنكليز قد احتلوا مصر عام ١٨٨٢ ولكنها نالت استقلالها الناجز سنة ١٩٣٦

والجزيرة العربية تمتاز باحتوائها الأماكن المقدسة ، مكة والمدينة . وهي بداعي تقاليدها الدينية وجغرافية أرضها تعيش عيشة منفردة انعزالية غير متأثرة بالعوامل الخارجية . لذلك انكسرت موجة التأثير الغربي الأوربي بما فيها من قومية وعلمانية ونزعات عصرية حديثة ، على شواطئ الجزيرة دون أن تحدث فيها هياجاً ملحوظاً . وفي أوائل الثلاثين من هذا القرن اكتشف الأمريكيون في شماليها — في البلاد السعودية — معادن غنية للزيت ولكن أثر الشركة الأمريكية يكاد يقتصر على بقعة محاذية للخليج الفارسي . وفيما سوى المملكة السعودية فهنالك مملكة اليمن المستقلة وهذه أيضاً متصفة بالمحافظة على القديم وعدم الإجابة لدواعي المدنية العصرية الحديثة

والهلال الخصيب يتألف من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق . ولقد كانت سورية ولبنان إلى نهاية الحرب العالمية الثانية تحت الانتداب الفرنسي ولكنهما اليوم جمهوريتان مستقلتان . وكانت فلسطين وما وراء الأردن والعراق تحت الانتداب الإنكليزي . ومقاومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان نشط الروح القومية الوطنية ؛ كما أن مقاومة الانتداب الإنكليزي في سائر بلدان الهلال الخصيب ومقاومة الصهيونية نشط الروح القومية فيها . ولقد كان تقدم العراق السياسي من الانتداب في عام ١٩١٨ إلى الملكية عام ١٩٢١ إلى الاستقلال والانضمام إلى جامعة الأمم عام ١٩٣٢ أمراً مذكوراً . والعراق اليوم مثل مصر حكومته ملكية دستورية

وعليه نرى أن الأمم العربية في غربي آسيا التي كانت حتى الحرب العالمية الأولى خاضعة للحكم العثماني قد فازت بين الحربين العالميتين باستقلالها وأخذت تسير في قافلة الأمم العصرية الديمقراطية الناهضة

٦ — أثر الغرب الحديث في البلدان العربية

ظلت البلدان العربية رازحة تحت الحكم العثمانى أربعة قرون (١٥١٦ — ١٩١٨) كانت بمثابة القرون المظلمة فى تاريخها الطويل . عاش أبناء العربية فى هذه القرون محافظين على القديم مقيدين بالتقاليد لا يشعرون بشئ من التقدم الأوربى ولا يهتمون به . فكان الجمود أهم ميزة لمدنيتهم

وجاءت حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٧ بمثابة الهزة الأولى التى أيقظتهم من سباتهم . وكان نابليون قد جاء بمطبعة عربية من رومة فأقامها فى القاهرة وأنشأ معها أكادمية للآداب والعلوم ومكتبة . فكانت هذه المطبعة أول مطبعة فى وادى النيل . وعقب نابليون فى حكم البلاد محمد على فأرسل البعثات العلمية والحربية إلى البلدان الأوربية ولاسيما فرنسا وإيطاليا، ولم يكتف بذلك بل استدعى من أوربا إلى بلاده ضباطاً وأساتذة وأطباء ومهندسين ، وأسس فى القاهرة مدرسة طبية وأخرى هندسية . وكان يحلم محمد على بتشييد إمبراطورية عربية يكون هو على رأسها

وأثر الغرب الذى بدأ فى مصر ما لبث أن امتد إلى سورية ولبنان وذلك فى عهد إبراهيم باشا ابن محمد على فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ — ٤٠) فأخذت الرسالات التبشيرية من كاثوليكية وبروتستانية تشيد المدارس والكنائس . فالامريكيون أسسوا فى بيروت عام ١٨٣٤ المطبعة التى لم تزل تعمل باسمهم . وفى عام ١٨٦٦ بنوا الجامعة الأميركية . وعلى الأثر شيد اليسوعيون الفرنسيون مطبعتهم التى لم تزل فى مقدمة مطابع الشرق وجامعتهم المعروفة فى بيروت . وما لبث أبناء لبنان وسورية أن أقاموا المطابع والمدارس والمكاتب والجمعيات العلمية والأدبيه على منوال المنشآت الغربية . وعقب عصر الترجمة من الإنكليزية والفرنسية عصر الإبداع والاستنباط فى الأدب والعلم والفن

وكان من نتائج النهضة الأدبية أن تولد الوعى القومى بين أبناء العربية وذلك بعد أن أدركوا بفضل هذه المدارس شيئاً من ماضيهم المجيد وتاريخهم الملىء بالمفاخر . فاليقظة السياسية عقبت اليقظة الأدبية . وتولدت فى أفكار القوم الروح القومية بما فيها من الرغبة فى التخلص من الحكم التركى وتقرير المصير والاستقلال السياسى

وكان رواد هذه النهضة معظمهم من أبناء لبنان المسيحيين ومن خريجى المدارس الأميركية الذين وجدوا فى مصر مجالا أوسع للعمل

فأساس النهضة العربية الحديثة إذن أدبى علمى . وعلى ذلك الأساس تشيدت دعائم الوطنية والقومية العربية . وكل ذلك بتأثير الوجهة الغربية التى نقلت إلى الشرق أفكارا علمانية واقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة . وكان من أهم الأفكار السياسية فكرة الديمقراطية وتقرير المصير

ولم تكن الروح القوميه العربية فى بادئ أمرها من النوع الإقليمى بل من النوع الشامل . كان أساسها اللغة والثقافة لا الدين ، وكانت ترمى إلى جمع المسلم والمسيحى المصرى والسورى واللبنانى على صعيد واحد هو الصعيد الأدبى

٧ — نشوء القومية والفوز والاستقلال

كانت البلدان العربية الآسيوية حتى الحرب العالمية الأولى وحدة مفردة تخضع للحكم العثمانى . على أن تلك الحرب كان من نتائجها تفكك عرى الإمبراطورية العثمانية وسلخ البلدان العربية وتجزئتها إلى وحدات متعددة مما آل إلى تجزؤ القومية العربية البدائية

فمصر بعد أن احتلها الإنكليز عام ١٨٨٢ صار همها الأول التخلص من ذلك الاحتلال . فأصبح لها مشكل خاص بها . وبفضل ذلك أخذت القومية فيها تصطبغ بصبغة محلية موضعية وانفصلت عن القومية العربية الشاملة . يومئذ اكتشف المصرى أنه مصرى واتخذ شعاره « مصر للمصريين » . وفى عام ١٩٣١ نالت مصر استقلالها بعد أن أمضت مع إنكلترا معاهدة لعشرين سنة تخول الإنكليز حق استخدام الراف وطرق المواصلات المصرية فى أيام الحرب وإبقاء حامية بريطانية على ترعة السويس

كذلك سورية ولبنان بفضل مقاومتهما للانتداب الفرنسى الذى أصبح مشكلهما الخاص بهما افترقتا عن بقية البلدان

العربية وتولدت فيهما روح إقليمية خاصة . وكان أبناء سورية ولبنان يشكون من عدم اعتبار فرنسا لقوميتهم ومن فرض اللغة الفرنسية عليهم ومن تقسيم البلاد السورية إلى ولايات والسماح لتركيا باحتلال سنجق هاتاي . فمقاومة الانتداب جاءت بمثابة مسن يشحذ عليه القوميون سيوف وطنيتهم إلى أن أعلن لبنان جمهورية مستقلة وكذلك سورية وذلك عام ١٩٤٥ . وكان لبنان في الكثير من أحقابه ولا سيما في العهد العثماني يتمتع بمقدار مختلف من الحكم الذاتي

أما مشكلة فلسطين التي وقعت تحت الانتداب الإنكليزي فما زاد عرقلته حشر الصهيونية فيه . وهي الحركة الأجنبية التي اعتبرها العرب بكليتهم حركة اعتداء وظلم . فالجهاد ضد بريطانيا والصهيونية نتج عنه روح فلسطينية محلية . وبعد أن ظهرت إسرائيل (١٩٤٨) ضم الملك عبد الله ما تبقى من فلسطين إلى مملكته وبذلك زالت فلسطين من الوجود

وكان الملك عبد الله قد بدأ حياته السياسية الهامة أميراً على ما وراء الأردن وذلك عام ١٩٢٢ بعد أن طرد الفرنسيون أخاه فيصل من عرش سورية المحدث

بيد أن سياسة الانتداب الإنكليزي في العراق جاءت من الطراز المستنير المتساهل ، ففي عام ١٩٢١ بعد أن فشل الأمير فيصل في محاولته الملكية في دمشق نصبه الانكليز ملكا على العراق . وفي عام ١٩٣٠ تخلى الانتداب البريطاني عن كل حقوقه في هذه البلاد واعترف بالعراق بلاداً مستقلة . فالعراق سبقت شقيقتها سورية في ميدان التطور السياسي مع أن سورية كانت تسبقها في التقدم العمراني والثقافي

والمملكة العربية السعودية هي من صنع ملكها الحالي عبد العزيز بن سعود الذي شيد لنفسه مملكة جديدة منتشرة من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر ومنطوية على معظم الجزيرة العربية الشمالية والمتوسطة . وهو الذي طرد الملك حسين والد عبد الله وفيصل من الحجاز . وجاء اكتشاف الزيت بغزارة فائقة في صحاري هاته البلاد حادثاً تاريخياً هاما إذ بواسطته فتحت بعض أطراف البلاد أبوابها لقبول العوامل العمرانية الغربية الحديثة . ولشركة الزيت الأميركية التي نالت امتياز الاستثمار عام ١٩٣٣ الفضل في جعل دخل المملكة العربية السعودية أعظم دخل لبلاد عربية في العالم

وفيما سوى هذه المملكة فهنالك مملكة اليمن في الجنوب التي لا تزال حكومتها ثيوقراطية وأبناؤها بعيدون عن المؤثرات الخارجية العصرية من علمية وفنية وعلمانية . فاليمن لا تزال محافظة على القديم بعيدة عن مجاري العمران التقدمي الحديث

إن كانت الحرب العالمية الأولى نتج عنها تقسيم البلدان العربية وتجزئتها وتوليد قوميات وطنية فيها فالحرب الثانية جاءت نتائجها عكس ذلك . شعر أبناء العربية أن مصالحهم الاقتصادية والسياسية تقضي بجمع كلمتهم وتوحيد أهدافهم فمالوا إلى التعاضد والتعاون والوقوف المحد في وجه العدو الخارجي . وكان من نتيجة ذلك تأليف جامعة الدول العربية وقوامها مصر وسورية ولبنان والأردن والعراق والبلاد العربية السعودية واليمن . وللجامعة دستور يكفل لكل دولة فيها الاستقلال التام ويقضي بحل المشاكل بين الأعضاء إذا كان ثمة مشاكل بطرق سلمية ويفرض التضامن على دفع الاعتداء من الخارج . وللجامعة لجنة سياسية وثانية اقتصادية وثالثة ثقافية . ومع رغبة الجزائر ومراكش وتونس في الانضمام إلى عضويتها فالدستور لا يجيز ذلك إلى أن تحقق كل واحدة من هذه البلدان استقلالها الداخلي التام

ومع أن الجامعة نالها شئ من الكسوف بداعي المعضلة الصهيونية التي تولدت منها إسرائيل فهي الآن تحدد حياتها وتسعى للعمل الصالح الشامل . وعلى نسبة ازدياد شأن هذه المنظمة في الشؤون الدولية تزداد قيمة الأعضاء فيها

فيليب حتي

الأمثال فى حياة اللغة

للأستاذ حامد حفنى داود

الأدب العربى بمعناه الخاص ينقسم إلى قسمين : شعر ونثر. النثر العربى صور شتى أهمها : الرسائل الأدبية بأنواعها الثلاثة : الديوانية والعامة والخاصة — ثم التاريخ الفنى والقصص — ثم الحوار والمناظرات — ثم المقتضبات والتوقيعات — ثم الحكم والأمثال — ثم الملح والفكاهة

وقد آثرت فى هذا المقال أن أتحدث عن «الحكم والأمثال» لما لاحظته فيها من تطور عجيب تخالف فيه فنون النثر العربى سواء فى نشأتها وتأريخها

والحكمة فى اللغة : القول الجليل ذو المعنى الشريف . والمثل : القول البليغ المقتضب يضرب لشرح أمر أو تفسير ظاهرة أو تأكيد معنى من المعانى . ولا تختلف الحكمة عن المثل كثيرا ، وربما كان أخص ما تمتاز به أنهما أقدم منه استعمالا وأشرف معنى وأعمق فكراً وأدل على المقصود وأبقى مع الزمن

ه ه ه

أما نشأتهما فترجع إلى أحداث قديمة تتعلق بواضعى اللغة أو المتكلمين بها فى أقدم عهودها ؛ فأكثر الأمثال يعود بنا فى نشأته وظهوره إلى العصر الجاهلى ، يوم كانت اللغة فى عنفوان شبابها ، وكادت تنحصر فى الجزيرة العربية ، والعرب بعيدون عن الأعاجم تقريبا ، وقبل أن يختلطوا بهم ويتفشى اللحن فيهم

ولكن من هؤلاء الذين أرسلوا هذه الأمثال ؟ لا شك أن هذه الأمثال لم تنزل من السماء أو ينزل بها الوحى . ولو أننا استطعنا أن نصدق أن مفردات اللغة كانت « تلقينيه توقيفية » كما يزعم الفقهاء استدلالا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها »(١) فإننا نجزم أن أكثر الأمثال — إن لم يكن جميعها — « اصطلاحى » ؛ لأنها — كما سنحقق — من صنيع العربى الصراح ووليدة تفاعله المستمر مع بيئته

وربما كان شعراء الجاهلية أسبق من خطبائها إلى هذا اللون من الفن النثرى . وقد تعجب لذلك لأن أكثر الأمثال لون من ألوان النثر وليست من باب الشعر . ولكنك لا تلبث أن تقتنع إذا علمت أن العناصر الأدبية وهى : الفكرة والخيال والعاطفة والأسلوب . تتحقق فى نفسية الشاعر قبل الناثر . ومن هنا كانت الأمثال أشبه بالشعر المنثور يرسله الشاعر قبل الناثر

ولعلك تؤيد هذا الزعم الذى ذهبت إليه إذا علمت أن أكثر الأمثال العربية التى دونها لنا القدماء من مؤرخى الأدب العربى ترجع فى وضعها إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين

وقد كان شعراء الصعاليك — وهم الرعيل الأول من شعراء العصر الجاهلى — أعظم حظا وأوفر نصيبا من إخوانهم فى هذا الباب . ولعل ذلك يرجع إلى استعدادهم الفطرى البالغ وتفاعلهم الصريح بالبيئة العربية الصارخة التى أبدعت هذا اللون من الأدب النثرى . واشتهر من بين هؤلاء جماعة كثيرون عرفوا بضربهم فى فيافى الجزيرة وتصرفهم فى مجاهلها . نذكر منهم على سبيل المثال : « تأبط شرا » و « أبا الطمحان القينى » و « السليك بن السلكة » و « والشنفرى »

وقد كانت هذه الأمثال وليدة أحداث ووقائع اعترضت هؤلاء الشعراء فى حياتهم . قيل : لما أسر أسيد بن جابر « الشنفرى » ، قال إخوان أسيد للشنفرى : أنشدنا . فقال : (إنما النشيد على المسرة) فأرسلها مثلا . وحكوا أن «السليك» سار ليلة على رجليه رجاء أن يصيب شيئا ثم نام ، وبينما هو نائم جثم عليه رجل وقال له : استأسر ، فرفع السليك رأسه قائلا (الليل طويل وأنت مقمر) فذهبت مثلا(٢) حدث كل ذلك والعرب فى بيئتهم ، ونطقوا به منجما وفق أحداث الحياة ووقائعها ، ولم يرثوه عن أجدادهم تلقينا وتوقيفا كما ورثوا مفردات اللغة(٣) وإنما تحكمت البيئة فى الاصطلاح

(١) المزهر لمجدد القرن العاشر جلال الدين السيوطى ص ١١ ج٢

(٢) شعراء الصعاليك من العرب «لصاحب هذا المقال»

(٣) على رأى القائلين بالتوقيف

والتواضع عليه

* * *

ولم يكد يظهر الإسلام وينتشر في بقاع الأرض شرقاً وغرباً حتى نمت هذه الأمثال — كما نمى غيرها من آداب اللغة — إلى ألسنة المتأدبين والناطقين بالعربية من عرب وأعاجم . ولكن قافلة الأمثال لم تسلك الطريق الذي سلكته قافلة الرسائل وغيرها من صور النثر . أريد أن أقول : إن تاريخ الأمثال العربية يغاير في نشأته وتطوره تاريخ الكتابة والرسائل مغايرة تامة . ذلك لأن الأمة العربية لم تنشأ حاجتها إلى الكتابة المنظمة والرسائل المدونة التي نقرأها في كتب الأدب إلى حين تعقدت الحياة واتسعت رقعة الدولة واحتيج إلى العمال في الأقاليم لإحصاء أمور الإمبراطورية الإسلامية وتنظيم سياستها الداخلية والخارجية . أما الأمثال فإنها لم تتحدد بهذا الزمن أو تختنق في هذه الدائرة الضيقة أو تتوقف على هذه الأسباب لأنها من الحياة اليومية في الأسرة والمجتمع . وقد كانت ولا تزال في كل زمان ومكان من الرجل الساذج والعامي والجاهل ومحدود الثقافة في الوقت الذي كانت فيه ولا تزال من الكاتب الكبير والأديب المبتكر . بل ربما كانت عند الساذج والجاهل أوفر استعمالاً من غيره

ومن هنا نستطيع أن نعلل كيف كانت الأمثال أسرع فنون النثر تطوراً ، وكيف سلكت طريقها في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي وهي تنمو نمواً مطرداً . إنها لم تتأخر إلى هذا الحين الذي نشأت فيه الكتابة الديوانية ؛ التي جودها عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم . بل سلكت طريقها صعداً إلى الأمام منذ مولدها على لسان العربي في بيئته الجاهلية ، وتلونت بالحياة الاجتماعية في شتى أحوالها وأطوارها وصورها المختلفة في التاريخ ؛ ذلك لأنها — كما قدمت — كانت جزءاً من لغة الحياة وزخرف القول الذي لا بد للناس منه في كل يوم

وهنا لا نعجب إذا رأينا أن تطور الأمثال لم يقف أو يجمد في اليوم الذي وقفت فيه وجمدت حياة الكتابة الديوانية أواخر القرن السابع الهجري(٤) ولا شك أنك ترى معي أن هذا راجع إلى السبب الأول نفسه — وهو أن الأمثال من الأدب اليومي عند العامي والبليغ على السواء . فظاهرة الاستعمال والتفاعل مع الحياة اليومية هي التي حفظت للأمثال رونقها وأبقت عليها حياتها

* * *

وثمة فارق آخر تتميز به الأمثال عن غيرها من فنون النثر ، ذلك أن هذه الفنون الأخرى حين جمدت في أواخر القرن السابع صارت صوراً أدبية قديمة كلاسيكية لا وجود لها في واقع حياتنا اليومية ، فلم يستطع أحد من الأدباء المتأخرين أن ينقلها إلى واقع الحياة ، كما لم يستطع العامة أن ينقلوها إلى لغتهم الدارجة أو تأخذ مكانها من نفوسهم وحياتهم التي تتطور يوماً بعد يوم . لقد عجزت هذه الفنون عن مواصلة حياتها لأنها جفت قبل أن تصل إلى أيدي العامة واستعمال سواد الناس لها ، على حين تلونت الأمثال تلوناً سريعاً بعاميتنا العربية وخاصة في العصرين : المملوكي والتركي . واستطاعت خلال هذه الحقبة الطويلة أن تخوض معركة العامية وأن تحرز النصر وأن تكسب جائزتي « التحرر » و « الخلود » معاً — دون أخواتها من فنون النثر . ومن ثم فرضت نفسها على الحياة كما فرضت العامية نفسها

ولعلك تعجب كثيراً حين ترى سبعة أعشار لغتنا العامية — اليوم — من هذه الأمثال . فلا تكاد تسمع أحداً ممن يتكلمون بالعامية الصرفة أو العامية المهذبة لا يستعمل هذه الأمثال بين الفينة والفينة . وهناك كثيرون من مفطوري العامة من يستطيعون أن يجعلوا حديثهم كله سلسلة عجيبة متتالية من الأمثال . ولم العجب وقد ولدت وتحورت في بيئتهم التي يعيشون فيها وورثوها عن آبائهم . فهي صنيعة وراثتهم وبيئتهم وعقليتهم وطوع ألسنتهم

وهل منا من ينكر ذلك ونحن نتحدث عن ظاهرة طبيعية واجتماعية . لغوية من مظاهر الطبع والسليقة . وإذا كنا نصدق أن من الصوفية من تحرز في كلامه المباح من أن ينطق بغير الآيات القرآنية في كل ما يسأل فيه أو يجيب عنه ، وأن من الشعراء من حاول أن يجعل جميع كلامه من الشعر لا فرق عنده بين أحاديث الأدب والأحاديث المباحة . وأن الكسائي قال : لو شئت أن أجعل جميع كلامي مما يقوله النحاة في اصطلاحاتهم

(٤) المنهج العلمي الحديث في تاريخ العلوم العربية (لصاحب هذا المقال)

أبو العتاهية

للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى

علاقته بالبرامكة

ذكرنا فيما سبق أن أبا العتاهية كان يلتزم جانب الفضل ابن الربيع فى النزاع الذى نشب بينه وبين البرامكة ، وقد أقمنا الدليل على ذلك بما كان بين الشاعر والفضل من تواد وتعاطف . وسنحاول اليوم أن ننظر إلى المسألة من جانبها الآخر ، فنرى مدى ما كان بين الشاعر والبرامكة من عداوة أو صداقة ، فإن كانت الأولى فقد استقام لنا ما ذكرناه آنفا من أن التعاون بين الشاعر والفضل كان تعاونا سياسيا يهدف إلى مضادة البرامكة ، وإن كانت الأخرى فقد التوى الحديث واضطرب

ومن حسن الحظ أن نرى الأدلة على ما كان بين البرامكة وأبى العتاهية من خلافات متعددة ، بقدر ما كانت شواهد انسجامه مع الفضل متنوعة ، ومن ذلك ما حدثنا به أبو الفرج من أن متحدثا ذكر فى مجلس يحيى بن خالد البرمكى يوما أن أبا العتاهية قد نسك وجلس يحجم الناس للأجر تواضعا بذلك ؛ فقال يحيى : ألم يكن يبيع الجرار قبل ذلك ؟ فقيل له نعم ، فقال أما فى بيع الجرار من الذل ما يكفيه ويستغنى به عن الحجامة ؟ فإذا عرفنا أن يحيى بن خالد كان على جانب عظيم من الحصافة والرزانة؛ أيقنا أنه ما كان ليفوه بتلك العبارة المنكرة لو لم يضمر للشاعر حقدا شديدا أنساه حلمه ووقاره . ومن ذلك ماروى أيضا من أن الرشيد قال يوما للشاعر ، وقد أعجبه ما رأى حوله من مظاهر ملكه : صف لنا ما تراه فى مجلسنا من مباهج الحياة . فأنشد :

عش ما بدا لك آمنا   فى ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت   فى ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا   ما كنت إلا فى غرور

وما كاد الرشيد يسمع الأبيات حتى بكى بكاء مرا ، فقال الفضل بن يحيى وكان بالمجلس : استدعاك أمير المؤمنين لتسره فسئته ! فقال الرشيد : دعه وما يريد ، لقد رآنا فى عمى فأحب ألا يزيدنا منه . أرأيت كيف كان الفضل بن يحيى يضيق ذرعا بأبى العتاهية وبالطريقة التى كان يتبعهـا فى بلبلة بال الرشيد وتنفيره من الحياة وزينتها ، على حين كان الفضل بن الربيع يغريه بذلك ويقيه عليه

وشىء آخر يزيدنا إيمانا بما ذهبنا إليه من انقطاع صلات المودة بين أبى العتاهية والبرامكة ، وذلك هو أننا لا نجد له بيتا واحداً من الشعر فى مدحهم . أليس ذلك عجيبـا حقا فى ضوء ما نعلمه من حرص أبى العتاهية الشديد على جمع المال ، وما نعلمه إلى جانب ذلك من كرم البرامكة الذى كان مضرب الأمثال ؟ فهل كان أبو العتاهية جاهلا بأنباء ذلك الكرم والبرامكة منه قاب قوسين أو أدنى يغادونه ويراوحونه فى بغداد ؟ كلا لم يكن شاعرنا جاهلا بشىء من ذلك؛ ولكن صلته بالفضل بن الربيع

انفلت ، وأن إنسانا سأله : ما حكم رجل سها فى سجود السهو فأجابه باصطلاحات النحاة : « المصغر لا يصغر »

أفبعد ذلك كله نعجب — ونحن فى معرض الطبع — من أن تمثل الأمثال السواد الأعظم من لغتنا العامية أو تصبح سبعة أعشار ما ينطق به العامة فى الشارع والمنزل ومكان العمل . إنها ليست سوى ظاهرة طبيعية لا عجب فيها

وإنما العجب الأكبر إن كان لا بد من العجب أن تنطلق « الأمثال » وهى صورة من صور النثر الفنى فى هـذا النماء السريع العجيب المطرد ، وأن تتطور مع الحياة ويكتب لها الخلود فى كل مصر كما تطورت « لغة الحديث » وكتب لها الخلود تماما . فتراهما تظهران فى ثوبين من العامية الإقليمية فى مصر أو غيرها من الأقطار العربية

ولعل ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على ما بين « التراكيب المثلية » — إن صحت هذه النسبة — وبين لغة الحديث اليومية من قرابة جوهرية واضحة أصيلة لا نستطيع دفعها أو إنكارها

للكلام صلة   حامد حفنى داود

ومناصرته له عليهم حرمته عطفهم ، وباعدت ما بينه وبينهم .

وإذا أعوزك الدليل على ذلك ، فاستمع إلى أبي الفرج إذ يقول : سأل أبو العتاهية صالحا الشهرزوري — وكان صديقا له — أن يكلم الفضل بن يحيى في حاجة له ، فتردد صالح في ذلك وأبدى استعداده لأن يمنح الشاعر ما يشاء من ماله الخاص ، ولكن الشاعر أبى إلا ما يريد ، وأنب صالحا وقرعه في عدة مقطوعات شعرية ، ولما وصل صالحا الأبيات التالية :

أهل التخلق لو يدوم تخلق ... لسكنت ظل جناح من يتخلق
ماالناس في الإمساك إلا واحد ... فبأيهم إن حصلوا أتملق
هـذا زمان قـد تعود أهـله ... تيه الملوك وفعل من يتصدق

لم يجد بدا من الذهاب كارها إلى الفضل ومعه الأبيات السالفة ، وكله في شأن أبي العتاهية ، فقال الفضل : لا والله ما شيء على الأرض أبغض إلي من إسداء عارفة إلى أبي العتاهية ، وقد قضيت حاجته لك

أرأيت كيف كان الفرق واضحا بين معاملة الفضل بن الربيع للشاعر ، ومعاملة الفضل بن يحيى له ؟ فبينا نرى الأول لا يكتفي بما يسبغه على الشاعر من ماله الخاص ، بل ينتزع له الأموال من الخلفاء ، ويروج لأشعاره عندهم ، إذ بنا نرى الشاعر لا يكاد يجرؤ على القرب من الفضل بن يحيى حينما تعرض له حاجة عنده ، بل يطلب له الشفعاء والوسطاء

وإننا لنعتقد أن فهم ما كان بين الشاعر والبرامكة ، وما كان بينهم وبين الفضل بن الربيع من خلاف على النحو الذي ذكرناه ؛ هو الطريق السليم إلى تفسير حدث غامض في الأدب العربي ، لا يكاد المرء يتدبره حتى يحس أن هناك فراغا في نفسه أو في القصة يحتاج إلى ملء . فقد روى الصولي في أوراقه أن يحيى بن خالد البرمكي شعر بحاجة إلى حفظ كتاب كليلة ودمنة ، ولكي يسهل ذلك الأمر على نفسه طلب إلى صنيعته أبان اللاحق أن ينظمه له . ويشتد حرص يحيى على إنجاز نظم الكتاب في أقصر وقت ، فيحبس أبانا في منزله إلى أن يفرغ منه ، ثم يعطيه جائزة سنية عند انتهائه من الكتاب . ويذكر الصولي أن جعفرا البرمكي كان يحفظ الكتاب أيضا . ثم يذكر في مكان آخر أن يحيى قال لأبان : هـلا قلت شيئا في الزهـد ، وأن أبانا نظم أشعارا كثيرة في الزكاة وغيرها من العبادات . ويروي أبو الفرج أنه نظم قصيدة سماها ذات الحلل ، ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق ، وينسبها بعض الناس إلى أبي العتاهية . والآن فلنناقش هذه الأخبار واحدا فواحدا . أما ما كان من رغبة يحيى وجعفر في حفظ كليلة ودمنة فأمر يستوجب التساؤل : لم عني البرامكة بهذا الكتاب تلك العناية الشديدة ، ولم حرصوا على حفظه أو حفظ شيء منه ، ولم كانت العجلة في نظمه عجلة أدت إلى حبس ناظمه ؟

والإجابة عن تلك الأسئلة تسهل علينا إذا نظرنا إلى موضوع الكتاب ، فما هو إلا محاورات وضعت على ألسنة الحيوانات ، وتدور حول ما يدبره بعض الناس للبعض الآخر من مكائد ، وما يبيتون لهم من شرور ، وآية ذلك أن أولى قصصه وأهمها تصف حال شخصين متحابين متوادين دخل بينهما ثالث ، وما زال يسعى بينهما بالسوء حتى أفسد ما كانا عليه من مودة ثم أهلكهما جميعا . ولعل القارئ الكريم قد رأى معي تمام الشبه بين موضوع الكتاب وما كان يمثل إذذاك على مسرح بغداد من روايات ؛ أليس هذان المتحابان هما البرامكة أو قل جعفر البرمكي بالذات من جهة ، وهارون الرشيد من جهة أخرى ، كما أن الداخل الثالث بينهما هو الفضل بن الربيع . ألا يمكن أن يكون يحيى وابنه جعفر ، إنما أرادا بحفظ ذلك الكتاب أن يجدا المادة حاضرة كلما عنت مناسبة لتبصرة الرشيد بما كان يدبره له ولهم الفضل بن الربيع من مكائد توشك أن تذهب بأكفأ وزرائه وأوفى أصدقائه ، وكفى بذلك وبالا على الطرفين ؟ نعم ، قد يكون ذلك بعض ما قصدوا إليه من حفظ الكتاب . وليس ببعيد أن يكون البرامكة — وقد حاروا في أمرهم لكثرة ما يرميهم به الفضل من مكائد — قد عمدوا إلى حفظ ذلك الكتاب حتى يجدوا فيه جوابا شافيا لكل ما يعرض لهم من أسئلة ، ومخرجا مما يقعون فيه من مآزق ، وإرشادا لما يمكن أن يلتزموه من أساليب الحيطة والحذر . والحكمة حينئذ في وضع الكتاب في قالب شعري واضحة ، فإن الشعر أيسر في الحفظ وأخف على اللسان ؛ ولذلك كان مستودع المثل السائر والحكمة البالغة منذ القدم ، ولاشك أن فنا كهذا

شأنه أكثر ملاءمة لمجلس الخليفة من النثر

وأما ما كان من إيحاء يحيى بن خالد إلى أبان بأن يقول شيئاً في الزهد ، مع ما يعلمه من أن الزهد ينبعث من النفس ولا يفرض عليها ؛ وما يعلمه أيضاً من أن أبانا كان رأساً من رؤوس الزنادقة في عصره ، فأمر أريد به النيل من أبي العتاهية الذي كان يحتكر (١) ذلك الفن الأدبي ، ويبني عليه صرح عظمته الشعرية ، ولا أدل على غيرته على ذلك الفن وحرصه على ألا يشاركه فيه أحد ، من انزعاجه حين علم يوماً أن أبا نواس قد بدأ يقول الشعر في الزهد ، ثم ما كان من إرساله رسولا إلى أبي نواس يحذره أن يقول شيئاً في الزهد ؛ ويخبره أن ذلك فن اخترعه هو وسيحميه من كل مغير عليه أو مشارك فيه ، ويظهر أن أبانا لم يستطع إقحام نفسه في عالم الزهاد ، لما عرف عنه جيداً من انتمائه إلى دنيا الزنادقة ، ولما كان لابد له من من الاستجابة لمولاه في صورة من الصور ، فقد أخذ ينظم الأشعار في العبادات من زكاة وصلاة ونحوها ، وكأن أبانا قد أراد أن يذكر أبا العتاهية بالأثر المشهور (ما تقرب عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه) ، وأن يخبره بأنه يجب على المرء أن يشغل نفسه بالعبادات ، لا أن يطيل الحديث عن الموت والقبور وما تؤدي إليه من خراب العالم ودماره ، مسمياً ذلك زهداً وورعاً

وأما ما أورده الصولي من أن أبانا قد أنشأ قصيدة سماها ذات الحلل ، وقد أودعها شيئاً من المنطق ، وأن بعض الناس كان ينسبها إلى أبي العتاهية ، فدليل جديد على أن أبانا كان يعارض أبا العتاهية في شعره ، ويحاكيه محاكاة شديدة ، حتى اختلط أمرهما على الناس ، وصاروا ينسبون ما لأحدهما للآخر

والآن وقد عرفت رأينا في الدوافع المختلفة التي أفضت إلى ما حدث من تحول في حياة شاعرنا من مرح إلى كآبة ، ومن تفاؤل إلى تشاؤم ، لعلك متطلع إلى معرفة آراء السابقين في ذلك . ونحن حين نحاول الإشارة باختصار إلى تلك الآراء ، نرجو من القارئ أن يتذكر ما قدمناه في صدر بحثنا من أن الشاعر كان ملتوياً في التعبير عن آرائه ، لما كانت تتضمنه

(١) لنا عود إن شاء الله تعالى إلى هذه النظرية

أحياناً من مهاجمة الخلفاء والوزراء ، ولذلك كان من الصعب أن يصل مؤرخو الأدب إلى أغراض الشاعر الحقيقية ، إلا إذا توفروا على دراسته دراسة تحليلية ، وأوتوا الزمن الكافي لمثل تلك الدراسة ، وذلك مالم يحظ به الشاعر من قبل ، وهكذا عاش شاعرنا مجهولا حتى أمس القريب ، لا يعرف عنه الناس إلا أنه كان زاهداً ، وذلك ما نرجو أن ينتهي هذا البحث إلى نفيه عن الشاعر نفياً تاماً

ومع أننا قد اعتمدنا في تكوين رأينا عن الشاعر على دراسة بيئته وطفولته ثم أشعاره دراسة هادئة مطمئنة ، فإننا نظلم القدماء إذا لم نذكر أنهم أيضاً قد أوردوا بعض لمحات يمكن أن يهتدي بها الساري في دياجي تلك الحياة المعقدة الغامضة ، ونعني حياة شاعرنا . من ذلك ما أورده الأغاني من محاورات دارت مع الشاعر أو دارت حوله ، أو أبيات شعرية قيلت فيه من أعدائه ومنافسيه ، وكل ما يقال عن تلك الأخبار أنها كانت سلبية ، ونعني بذلك أنها إنما أكدته من بخل الشاعر الشديد وحرصه المفظع على جمع المال ، قد نفت أن يكون الشاعر قد نهج نهجه الجديد في الحياة ، الذي بدأ عام ١٨٠ هجرية تحت تأثير ميل حقيقي إلى الزهد كما نعرفه نحن ، ولكنها تقف مكتوفة اليدين عند ذلك الحد ، فلا تذكر لماذا إذن لبس ملابس الزهاد وأكثر القول في الزهد

من ذلك تلك المحاورة التي دارت بينه وبين ثمامة بن أشرس حينما قال الشاعر :

ألا إنما مالي الذي أنا منفق　　وليس لي المال الذي أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي　　يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقال له ثمامة : إن كنت تؤمن بما تقول ، فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ، لا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ، ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك ؟ فقال يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكني أخاف الفقر والحاجة . ومن ذلك أيضاً ما رواه صاحب الأغاني من العباس بن عبيد الله قال : كنا عند قثم بن جعفر بن سليمان وعنده أبو العتاهية ينشد في

الزهد فقال قثم : ياعباس اطلب الساعة الجاز(١) حيث كان ولك عندى سبق فطلبته، وحين حضر مجلس قثم وجد أبا العتاهية مازال ينشده فى الزهد ، فأنشأ الجاز يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهـد الناس ولا يزهـد
لو كان فى تزهيده صادقا ... أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد

فلو علم قثم أن أبا العتاهية صادقا فى التعبير عن شعوره حينما يقول فى الزهد لما عبث به كل ذلك العبث ؛ ولما أغرى الجاز به

ولكن إبراهيم بن المهدى يخطو خطوة إلى الأمام ، فيذكر بعض ما كان يدفع الشاعر إلى القول فى الزهد :

لا يعجبنك أن يقال مفوه ... حسن البلاغة أو عريض الجاه
إنى رأيتك مظهرا لزهادة ... تحتاج منك لها إلى أشياء

فهو يبدى شكه الشديد فى صدق الشاعر فيما يدعيه من زهد، ويعتقد أنه إنما يقول ما يقول كى يبنى له جاها بين العامة الذين يستهويهم كل ما يدور حول الدين من أحاديث . أو لعله يشير إلى ما كان للشاعر من نفوذ وصولة نتيجة لاتصاله بالفضل بن الربيع وزبيدة

ولعل أكثر الناس معرفة بأسلوب أبى العتاهية فى الحياة هو أبو العلاء المعرى ، وقد دون رأيه فيه فى مقطوعتين من الشعر يقول فى إحداها :

الله يرفع من يشا ... ء رتبة من بعد رتبه
أظهر العتاهى نسكا ... وتاب عن حب عتبه
والخوف ألزم سفيا ... ن أن يحرق كتبه

فأنت ترى شك أبى العلاء فى نسك أبى العتاهية وسخريته منه واضحة فى البيتين الأولين ، ويزيد البيت الثالث ذلك الشك تأكيدا بما يعتقده من مقارنة بين حال شاعرنا وحال سفيان الثورى الذى دفعه خوفه من الخليفة إلى تحريق (٢) كتبه . وكأن أبا العلاء يريد أن يشير إشارة لطيفة إلى أن أبا العتاهية إنما تظاهر بالزهد ، وأكثر من القول فيه ليستر ما كان يضمره للخليفة من بغض ، وأنه كان يمنى الخليفة نفسه بكثير مما كان يقوله فى ذلك الباب على نحو ما سنشرحه بعد

وفى المقطوعة الأخرى يقول أبو العلاء :

أرى ابن أبى إسحق (٣) أسحقته الردى ... وأدرك عمر الدهر نفس أبى عمرو
تباهوا بأمر صيروه مكاسبا ... فعاد عليهم بالخسيس من الأمر
بكسوة برد أو بإعطاء بلغة ... من العيش لا جم العطاء ولا غمر
فلا يضع الله الساعى فى التقى ... فمن يسع فيها لا يخف غبن الدهر

أما ما قاله الكوفى (٤) فى الزهد مثل ما تغنى به البصرى فى صفة الخمر

فأبو العلاء يدعو أهل العلم والأدب هنا أن يسموا بأدبهم فوق حاجات بطونهم وأجسادهم ، وأن يهدفوا فيما يقولون إلى أغراض أسمى وأنبل من أغراض هذه الحياة الفانية . وبيته الأخير ظاهر فى تأييد ما ندعو إليه خاصا بزهد أبى العتاهية ، إذ لا نرى فرقا كبيرا بين زهديات أبى العتاهية ، وخمريات أبى نواس ، حيث أن كلا منهما كان يجرى بشعره وراء غرض مادى ، وإن اختلفا فى الطريقة والمذهب

أما المستشرقون فهم فى نفس الحيرة والاضطراب التى كان فيها الأوائل حول مقاصد الشاعر ، ويقترب نيكلسون منا اقترابا شديدا ، حين يشير إشارة خفيفة فى هامش كتابه L.h.A ، إلا أن أبا العتاهية ربما كان قد ترك مجلس الخليفة ومال إلى الزهد لكراهيته للحياة التى كان يحياها شعراء البلاط فى ذلك الوقت

محمد عبد العزيز الكفراوى

(١) الجاز بن أخت سلم الخاسر ، وقال هذه الأبيات انتقاما لخاله الذى قال فيه أبو العتاهية

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال

(٢) ذكر صاحب تاريخ بغداد أن سفيان أخفى كتبه حين تخوف الخليفة

(٣) أبو إسحق وأبو عمرو كانا عالمين بالعربية طال بينهما اللجاج والخصومة الأدبية

(٤) الكوفى أبو العتاهية والبصرى أبو نواس

زعماء التاريخ :

مصطفى كمال أتاتورك

للأستاذ عبد الباسط محمد حسن

« لم يكن مصطفى كمال . رجلا من رجال المصادفة والحظ .. يرفعه الى البطولة خلو الميدان . ويدفعه الى الزعامة غباء الأمة . وإنما كان من الصفوة المختارة الذين يضع الله فيهم الهداية للتعليم الذى يوشك أن يضل .. والحيوية للشعب الذى يأبى أن يموت ... »

« الزيات بك »

— ١ —

يقال إن التاريخ يخلق العظماء ... إذ يتيح لهم فرص الزعامة ... ويمهد لهم سبل العظمة ... كما يقال إن الزعماء يخلقون التاريخ ... لأنهم يغيرون اتجاهاته ، ويؤثرون فى أحداثه ... ويعملون على تكوينه وخلقه بصورة جديدة ...

والواقع أن للزعامة أسباباً عامة ... متصلة بتاريخ الأمة ... وأسباباً خاصة متصلة بحياة الزعيم ، بحيث لا نستطيع أن نرجعها إلى تاريخ الأمة وحده ، أو لظروف داخلية معينة ... كما أن تاريخ الدول — قديمها وحديثها — متأثر بسياستها الداخلية ... وظروفها الدولية ... لهذا يتأثر التاريخ بحياة العظماء ... ولكن العظماء ليسوا كل شئ فى تاريخ الدول ...

* * *

وزعماء التاريخ يظهرون فى غالب الأحيان ... حينما تشتد ببلادهم الأزمات ... ويتعقد الموقف السياسى ، ويختل الميزان الاجتماعى والاقتصادى ... وتنحرف الأمور عن سيرها المستقيم ... حينئذ يشعر الزعماء بآلام شعوبهم أكثر مما تشعر ... ويدركون الأخطار المحيطة بها أكثر مما تدرك ... ويفكرون التفكير العميق فى معرفة أسباب الداء ... ووصف الدواء ... ثم يأخذون بيد بلادهم ... وينيرون أمامها السبيل ... ويهدونها إلى الحق وإلى صراط مستقيم ...

وتاريخ الشعوب فى مختلف العصور والأزمان . . . حافل بكثير من الزعماء والقادة . . . سواء كانوا زعماء سياسة ، أو قادة فكر ، أو أبطال حرب .. وهؤلاء جميعاً ساهموا بنصيب كبير ، وقسط وافر فى نهضة بلادهم ...

ولقد ظهر فى العصر الحديث — فى الشرق والغرب على السواء — زعماء كثيرون . . اتصف معظمهم بالجرأة والحزم.. وسرعة البت فى الأمور . . وكان لكل منهم أثره فى تكوين الأمور ... وتشكيل الحوادث .. وتوجيه الأمم .. من بين هؤلاء مصطفى كمال فى تركيا .. وهتلر فى ألمانيا .. وموسولينى فى إيطاليا ..

* * *

ظهر مصطفى كمال فى تركيا بعد الحرب الأولى .. وقد خرجت منها مهزومة ذليلة .. ولم تكن الهزيمة فى تلك الحرب أول الكوارث التى لحقت بتركيا .. فقد انتزعت القوات البريطانية من الأتراك سوريا وفلسطين والعراق خلال الحرب .. كما سبقتها هزائم الحروب مع إيطاليا ودول البلقان .. كما سبقتها أزمات إنشاء الحكومة النيابية .. وقد زاد فى حرج الحالة بعد انتهاء الحرب .. احتلال اليونانيين لكثير من الولايات التى كانت تابعة لتركيا ، ونزولهم فى أزمير ...

كان العالم كله يتوقع أن الأتراك وهم على هذا الحال من الضعف .. لن تقوم لهم قائمة قبل عشرات السنين . وإذا بهم يخيبون ظن الدول .. ويعملون على إحياء تركيا وبعثها من جديد ... وكان ذلك بفضل زعيمها العبقرى « مصطفى كمال ... »

رأى مصطفى كمال ... أن من الواجب العمل على قيام حركة قومية نضالية ... تهدف إلى الاستقلال والحرية والكرامة .. وتعمل على توحيد قوى الأمة .. ومقاومة كل حركة أجنبية .. لذلك ترك القسطنطينية .. مركز الدولة العثمانية .. ورفع علم القومية العثمانية فى أنقرة .. بعيداً عن مرمى مدافع الحلفاء .. وهاجم جيوش اليونان .. فردهم على أعقابهم خاسرين . .

وكان مصطفى كمال يؤمن كل الإيمان بحيوية الأمة التركية.. واستعدادها للنضال فى سبيل الحرية والكرامة والعزة .. وكان إيمانه بوطنه أكبر مشجع له على العمل .. وخير دافع له

للنهوض ببلاده .. لذلك أثار حربا دامت ثلاث سنوات من سنة ١٩١٩ — ١٩٢٢ م .. استطاع بعدها أن يملى شروطه على الدول الأوربية الكبرى .. فمزق معاهدة «سيفر» التى كانت الحكومة الشرعية قد قبلتها .. وأجلى اليونان من الولايات التى كانت قد احتلتها ، وأرغم الدول على التسليم باستقلال الوطن التركى فى معاهدة «لوزان» ، وبذلك كانت تركيا الدولة الوحيدة التى رفضت صلحا يملى عليها إملاء . . أو معاهدة تفرض عليها فرضا .. ولم يكن تخليص الوطن التركى من المستعمرين إلا مقدمة لسلسلة الإصلاحات الجريئة التى قام بها أتاتورك .. والتى أعطت لتركيا مظهر الدولة المتمدينة العصرية

— ٢ —

ولد مصطفى كمال سنة ١٨٨١ م — فى مدينة سالونيك ... وهى بلدة إغريقية الأصل ، وكان أبوه «على رضا» موظفا صغيراً فى الجمارك .. وأمه «السيدة زبيدة» من أسرة محافظة تتمسك ما استطاعت بالتقاليد الموروثة .. لذلك كانت أمنيتها الكبرى .. أن ترى وحيدها مصطفى فى مدرسة دينية إسلامية حتى يصير شيخا من شيوخ الدين ...

أما والده فكان يرغب فى أن يثقف ولده ثقافة غربية .. وكان الفوز لأبيه فى النهاية ، فدخل المدرسة وعمره سبع سنوات وقد غادر أبوه بعد ذلك وظيفته .. استعدادا للحياة الجديدة ، وما تتطلبه من نفقات — فاشتغل تاجر أخشاب ... ولم يلبث إلا قليلا حتى مرض مرضه الأخير ومات قبل أن يرى ولده فى المدرسة العالية ...

* * *

وجدت الأم نفسها وحيدة فى «سالونيك» ولم يكن هناك من يرعى شؤونها ، ويتولى أمورها .. بعد أن فقدت زوجها وعائلها .. وكان معها من هو أحق منها بالعناية والرعاية .. لذلك وجدت نفسها مرغمة — أمام قسوة الحياة — لأن تنتقل مع صغيرها .. إلى منزل أخيها .. وكان مزارعا فى قرية قريبة من المدينة ..

وهناك فى وسط الحقول .. نسى مصطفى المدرسة والعلم وأقبل على حياته الجديدة . وعاش كما يعيش صبيان القرية فى أحضان الطبيعة .. ونعم بحرية لم ينعم بها من قبل فى «سالونيك»

وظل هكذا عامين كاملين حتى بلغ من العمر إحدى عشرة سنة ، اكتسب فيهما خشونة الفلاحين فى طباعه ، كما اكتسبها فى بنائه الجسمى ، ولم يعد يرضخ لمشيئة أمه كما كان حاله من قبل

وكان مصطفى على الرغم من عناده وصلابته ، شديد الذكاء قوى الملاحظة — وكانت أمه تنظر إلى حياته الجديدة ، فتشعر بالأسف العميق لأنها لم تستطع أن تحقق الأمنية التى أرادها له أبوه ، وهو أن يدخل المدرسة العالية ، كما أنه — فى نظرها — لم يخلق للقرى والحقول ، والسير طول حياته وراء الماشية ، لذلك ظلت تبذل جهودها حتى التحق ولدها بالمدرسة من جديد . .

وجعل مصطفى يتابع عمله فى المدرسة بجد وعناية حتى أكمل تعليمه بها ، فاقترح عمه أن يلحقه بالمدرسة العسكرية فى سالونيك ، وكان مصطفى ميالا بطبيعته لحياة الجندية ، يقول فى مذكراته عن هذه الفترة «كان يسكن فى البيت المجاور لنا — طالب بالكلية الحربية يدعى «أحمد» ، وكنت أحسده كلما التقيت به ، على هندامه الجميل ، وكذلك كنت كلما التقيت فى الطريق بضابط يسير مرتديا ثيابه الزاهية الخلابة ، أقف مبهوتا ؛ وأنا أتابعه بنظرى ، لذلك ما كدت أنتهى من دراستى الابتدائية حتى صممت على أن أدخل الكلية العسكرية لأصبح ضابطا أزين جسمى بالملابس العسكرية الجميلة .. »

التحق مصطفى بالمدرسة العسكرية ، فأظهر نبوغاً وتفوقاً على أقرانه ، مما جعل أساتذته يوصون بنقله إلى مدرسة حربية أخرى ولما أكمل علومه بالمدرسة الجديدة ، التحق بمدرسة أركان الحرب فى القسطنطينية حيث تخرج فيها برتبة «يوزباشى»

وكان مصطفى خلال هذه الفترة قد تطور تطوراً غريبا ، فلم يعد ذلك الطفل الصغير الذى يلهو عابثاً فى الحقول ، أو يتشاحن مع أحد أقرانه لأمر تافه بسيط ،فقد تعلم الفرنسية أثناء دراسته وقرأ كثيراً من الكتب الثورية مع صديق له يدعى «فتحى» قرأ فولتير وروسو ، وهوبز ، وجون ستيوارت ميل، كما اشترك فى جمعية «الوطن» وهى جمعية سرية تعمل على محاربة الاستبداد

من يسمع ؟

مهداة الى الأستاذ الحوماني

للاستاذ خليل رشيد

تفضل الأستاذ الحوماني قبل هنيهة من الزمن فأولاني ثقته لشرف المساهمة في كتابه من يسمع ؟ وها أنا أجيب دعوة الأستاذ الحوماني شاكراً له ثقته الغالية ، راجيا تفضله بالقبول :

من يسمع ؟

من يسمع عنوان جديد لكتاب جديد من مبدعات الأستاذ الحوماني وضعه بعد خروجه عن ألف فكرة لألف رجل في كتابه مع الناس . وللأستاذ الحوماني فكرة واحدة يعتز بها هي إيمانه يقول النقد الأعظم صلى الله على ذاته الزكية : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..

والكتاب فكرة لم تولد بعد .. ولكننا نلمس روح الثورة والتمرد على المجتمع وعاداته المكبوتة في نفس الأستاذ التي ينبئ بها عنوان كتابه من يسمع ؟ وأكاد أسمع بحة صوته وهو يبث شكاته وأذاته من صدى عنوان كتابه هذا . وأستطيع أن أرى سحنة وجهه وقد بدت عليها سورة الغضب . وثورة الأديب ، وإني لأستشف قلبه وقد سطر عليه كلمة من يسمع ؟

أي نعم يا أستاذ

أصرخ ملء فلك

اغضب ملء جمجمتك

تألم ملء قلبك

فليس هناك من يسمع . وإن تجد من يسمع . ولو أخرجت ألف كتاب وكتاب على غرار فلان (١)

من يسمعك .. من يصغى لصرير قلبك .. من يسمع قلمك القاسي المرير وهو ينشد أنشودة الإصلاح . ويرعف باسم الحق الذبيح صابا وعلقما على صفحات فلان ؟

من يسمعك . وأنت ترجع لحنا حزينا . وتنشد نشيدا مؤلما فيه عنف الموت وصرامته على قيثار فلان ؟

من يسمع هذا اللحن الحزين والكل ثمل بكأس حواء (٢) يتغنون بوحي الدموع والنهود والقبل ؟

وقد جن الناس بالثمر الجنون . فهم بين لاه بالثمر وعابث بالعفاف . ليس هناك من يسمع ، أو يصغى لحديث فلان ، وأنشودة فلان ، وفيه صرامة الحق ومرارة الصراحة

من يسمع كلمة الحق وصرامة القول فيها . ومن يستسيغ مشرب كأس ماؤها صاب وعلقم . وأي مسمع لا ينبو النغم الشاكي الحزين ؟

من يسمع كلمة المصلح وهو يدعو إلى بيع موت عاجل بحياة آجلة ؟ من يصغى لحديث المرشد وهو يدعو إلى قتل اللذة الرذولة وموت العاطفة وكبح الشهوات . والانضمام تحت راية العقل ؟

من يسمع قرزة مبضع الجراح وهي تستأصل شأفة الداء . ولا تقزز نفسه ؟

من يسمع نداء الضمير وهو يصرخ من الأعماق بمواساة

(١) فلان . ديوان شعر للاستاذ الحوماني

(٢) حواء ديوان شعر آخر للاستاذ الحوماني

السياسي ، وتحطيم القيود الأجنبية ، وأخذ يكتب النشرات الحماسية ناقداً فيها سياسة السلطان ورجال الدين وداعياً إلى تحطيم القيود ، ومحاربة الظلم والاستبداد ، على اختلاف صوره

كانت تركيا في ذلك الوقت تحت حكم السلطان « عبد الحميد » الذي وقف عقبة في سبيل الحركات الإصلاحية الكبرى ، والذي ألغى مجلس النواب ليصبح الحاكم المطلق في تركيا — والذي فرض رقابة شديدة على الشعب ، حتى ذكروا أنه ما من ثلاثة تكلموا معا في أمر من الأمور إلا وكان أحدهم جاسوسا للسلطان « عبد الحميد ... »

ولذلك لم تمض فترة طويلة حتى استطاع جواسيس السلطان القبض على زعماء جمعية الوطن ، وتقديمهم إلى المحاكمة ، وبذلك أبعد مصطفى كمال من القسطنطينية ونفي إلى بلاد الشام ...

(للكلام بقية) ابراهيم سط محمد حسن

الضعيف وصلة الرحم ونصفة المظلوم ، ونبذ المداوة والبغضاء ونزع ما فى الصدور من غل ؟

من يسمع كتاب الله وهو يدعو إلى ما فيه الخير والصلاح والنفع العميم للبشر ؟

من يسمع دعوة الرسل والمبشرين لطريق الهدى والصلاح .

ومن يسمع دعوة الأديب وهو يدعو إلى ارتقاء المثل العليا، والمثل العليا صعبة المرتقى ؟

من يسمع دعاة العقل والفضيلة وفيها ما فيها من جهد وكفاح ؟

نعم أيها الأستاذ ؟

لن تجد من يسمع لضياع الموازين وفقدان المقاييس . وضيعة الأخلاق ..

لن تجد من يسمع . وليس هناك من يسمع وإن يسمع فلان . وليس هناك من يسمع فلان .. ما دام فلان .. لا يريد أن يسمع قول الحق . وكلمة الصراحة وكل الناس على شاكلة فلان حتى أنا وأنت :

وإن أبيت إلا أن تسمع هؤلاء الصم شكاتك . فاصرخ مل' فك حتى تتمزق رئتاك وحنجرتك وردد

من يسمع ؟

فلن تجد من يرد عليك غير صدى بعيد من أغوار الماضى وأعماق التاريخ

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

خليل رشيد

مصادر التاريخ الحضرمى

للأستاذ أحمد عوض باوزير

تمهيد :

هناك حقيقة تاريخية ثابتة ينبغى مراجعتها ، قبل البدء فى الحديث عن « مصادر التاريخ الحضرمى » . ومن المؤرخين المحدثين الذين فطنوا إلى أهمية هذه الحقيقة ، السيد علوى طاهر الحداد ، مؤلف كتاب « الشامل » . فقد ورد فى رسالة له أسماها « جنى الشماريخ » ما يفيد فى تقرير هذه الحقيقة

وفحوى هذه الحقيقة التاريخية ، هو أن التاريخ السياسى القديم ، لحضرموت لا يمكن دراسته منفصلا عن تاريخ اليمن الكبير ، أو عن تاريخ الإسلام فى الجزيرة العربية حتى إلى ما بعد نشوء الدول الكثيرية ، فى أواخر القرن الثانى الهجرى . ويقال فى تعليل قيام بعض الحكومات القبلية ، واستقلالها أثناء هذه الفترة الزمنية ، أن ذلك كان نتيجة لأحوال الضعف المادى والأدبى ، فى حكومات اليمن المتعاقبة ، أو فى عاصمة الخلافة الإسلامية

ومما يفيد فى تقرير هذه الحقيقة كذلك انتشار الفرق الدينية فى حضرموت ، فإن ذلك الانتشار يعنى امتداد النفوذ السياسى والإدارى ، إلى هذه الرقعة من الجزيرة العربية . وأظهر هذه الفرق « الأباضية » ثم « القرمطية » . وكان ظهورها أيام اضطراب دول الزياديين فى اليمن ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى و « الإسماعيلية »

ما هى مصادر التاريخ الحضرمى :

وإذا كنا قد أثبتنا هذه العلاقة بين تاريخ حضر موت ، من جهة ، وتاريخ اليمن أو الجزيرة العربية ، من جهة ثانية . فيحسن بنا أن نتساءل . ما هى مصادر التاريخ الحضرمى إذن ؟ وما هى نوع العلاقة فى هذه الوحدة السياسية والاقتصادية ؟

والجواب على أولها ، هو أن هناك كثير من المصادر التاريخية ، بأقلام جهرة من الحضرميين النابهين ، غير أن أهمها قد ضاع ، ولم يبق منها غير مقتطفات ، أو شذرات متفرقة . ومن هذه المصادر تاريخ « بازرعة » وتاريخ « حنبل » وكتاب « الفرج بعد الشدة فى إثبات فروع كندة » وتاريخ «الشبلى» و « شنبل » وغيرهم من المؤرخين . وحتى هذه المصادر لا يمكن أن تؤخذ على علاتها ، دون الرجوع إلى الأحوال العامة ، فى تاريخ البلدان المجاورة التى يتصل تاريخها السياسى اتصالا وثيقا بسير الأحوال فى البلاد الحضرمية

أما عن نوع العلاقة ، فى هذه الوحدة السياسية والاقتصادية بين حضر موت وغيرها من الدويلات فى الجزيرة العربية ،

فذلك يعنى تفصيل الحكومات السياسية التى تعاقبت على اليمن منذ صدر الإسلام ، إلى وقت انفصال حضرموت نهائيا من حكومات اليمن فى أواخر القرن الحادى عشر كما نذهب إليه

ومن العسير جدا على الباحث فى تاريخ هذه الحكومات المتعاقبة ، أن يهتدى إلى تحديد هذه العلاقة ، تحديدا شاملا . فإن المجال لا يزال مفتوحا للدراسات التاريخية ، وهذا النقص يكاد يكون ملحوظا للمعنيين بدراسة تاريخ الجزيرة العربية : ولذلك فإننا عاجزون حتى الآن عن تحديد تلك العلاقة ؛ لأن ما لدينا من المباحث العلمية والمراجع التاريخية لا يكفى فى تقرير هذه الحقائق تقريرا ضافيا ومفيدا

كيف ضاعت هذه المصادر :

ويذهب السيد الحداد برسالته « جنى الشماريخ » فى تعليل أسباب ضياع تلك المصادر التاريخية التى أشرنا إليها آنفا إلى انتشار البداوة والجهل بين سكان حضرموت ؛ لأن انتقال تلك المؤلفات إلى أيدى أولئك النفر من الجهلة ، معناه الإهمال والضياع

وربما كان هناك من يريد أن يسأل : كيف أمكن نبوغ تلك الفئة من المؤرخين ، وسط تلك الجهالة المتفشية . ولا إخال أن « الحداد » كان ينتظر بداهة هذا السؤال ، فقد أثبت فى موضع آخر من رسالته السابقة « أن الذين قدر لهم الإقبال على العلم منهم فى تلك الأزمنة إنما تهيأت لهم أسباب خاصة ، تيسر لهم معها التفرغ لذلك »

وأنا وإن كنت أوافق « الحداد » فى بعض ما ذهب إليه فى تعليل أسباب ضياع المصادر التاريخية ، غير أنى أعتقد أن هناك سببا أقوى ، وهو أن المتأخرين من المتعصبة ، قد رأوا فى سيرة الأسلاف ما ينكرونه عليهم من المذاهب أو النحل . فعمدوا إلى إخفاء تلك المؤلفات وطمسها ، فى بعض الأحيان . وقد ذهب إلى مثل هذا الرأى بعض ذوى النظر والباحثين

محاولات فى التاريخ الحضرمى :

ظهرت فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، محاولات أولية فى تدوين التاريخ الحضرمى القديم ؛ وهى محاولات بدأت ضيقة ، ثم أخذت تتسع تدريجا ، فقد ظهر كتاب « الشامل » لمؤلفه السيد علوى الحداد . وكتاب « تاريخ حضرموت السياسى » للأستاذ صلاح البكرى ، وكتاب « تاريخ الدولة الكثيرية » للسيد محمد بن هاشم ، وكنت قد اطلعت على نسخة خطية ، بالمكتبة السلطانية بالمكلا من كتاب « التابوت » للسيد عبد الرحمن بن عبيد الله

وأستطيع أن أجزم أن هذه المؤلفات على الرغم من حداثتها لا تخرج عن سرد الحوادث سردا عاما دون تعمق أو تصويب . وقد اعترف السيد « ابن هاشم » فى كتابه « تاريخ الدولة الكثيرية » بهذه الحقيقة ، فقال فى مقدمة الكتاب : « وبعد فقد التزمنا على أنفسنا فى هذا الكتاب أن نكتب ما عثرنا عليه فى كتب التاريخ من أخبار القوم مجردة من الملاحظات والانتقادات والأخذ والرد والتحليل والتركيب »

ويحاول السيد ابن هاشم أن يبرر هذا المسلك التاريخى بقوله « ولست أجد لى حقا فى مؤاخذتى أشخاصا على سلوك سلكوه أناخت على علله وأسبابه السنون ، ودفنت مبرراته ومسوغاته طوال القرون »

ونحن لا نقر السيد « ابن هاشم » وهو الكاتب الأديب على هذا النحو من التفكير . وسواء أكانت المبررات التى زعمها صحيحة أم بغير صحيحة فإننا كنا نتوقع أن يعمد إلى « المعول » لنبش الحقائق وغربلتها ، وأن يبرأ من تلك الشفقة والرحمة ، لأنها لا تجدى فى منطق الوقائع التاريخية أو لا تفيد كثيرا

وأود فى ختام هذا الحديث القصير أن أشيد بأسلوب « ابن هاشم » فى الكتابة : ذلك الأسلوب الأدبى الرصين الذى يطالع القارئ من حين لآخر ، فى أكثر من مكان من الكتاب

هذه فذلكة من « مصادر التاريخ الحضرمى » أقدمها فى أنسب الأوقات وأصلحها ، لعلها تفيد فى إنارة السبيل للمعنيين بدراسة التاريخ الحضرمى القديم وتعين على فهم الحقائق التاريخية الكبرى

خيل باوزير — أحمد عوض باوزير

رد على نقد

حول «مذكرات واعظ أسير»

للأستاذ أحمد الشرباصي

شاء الكاتب الصديق الشيخ كامل السيد شاهين أن يملأ أكثر من ثلاث صفحات فى « الرسالة » الغراء بالحديث عن كتابي الأخير : « مذكرات واعظ أسير » . ومن حق القراء على الرسالة أن ينفسح صدرها لكلمة النقد كما ينفسح لكلمة التقدير ؛ ولكن الواجب المسلم هو أن يكون الحديث ذا بال ، وأن يكون النقد ناهضاً على أساس متين من الحق والصدق ، حتى يسلم من الهوى والظنة ، ويرتفع عن السباب والمهاترة

ولقد بسط الشيخ شاهين رداء الحديث فى صدر كلامه مادحاً مطرياً ، ثم جمع أطرافه على وخزات من النقد يحسبها فى الموضوع ، ونراها مصطنعة ليبدو الكاتب وكأنه يعادل بين التأييد والتنفيد ، حتى يقال له : ما أبرعك مادحاً وقادحاً ؛ وهيهات ! ..

وعلى الرغم من مقدمة الكاتب العريضة المشعرة باستفادته من الكتاب وتأثره به ، وعلى الرغم من أنه اعترف بأن « المآخذ » التى سيذكرها « لا تشين الكتاب » ولا تتناول موضوعه وفصوله ، ولا تورث سوراً إلا « كلفاً من بعض الجوانب » فقد شاء له حرصه على الإفاضة فى القول أن يملأ صفحتين بالدوران حول هذه اللاحظات التى لا تشين ولا تتصل بالموضوع

ويؤسفنى أن أقرر أن أولى ملاحظاته ينقصها الصدق ، فقد ادعى على أننى أكثرت فى كتابى من ذكر « أنى خطيب ، وأن لى جهوداً ملحوظة فى نشر الدعوة ، وأن لى أتباعاً وأنصاراً » .. وأين ذلك فى الكتاب أيها الصديق ؟ لعل حديثنا جرى عن طريقة المؤلف فى خطابته ، وعن حرصه على وصل المنبر بالحياة الاجتماعية ، وهذا لا ضير من تقريره ، لأنه رسم طريقة وتحديد توجيه ؛ وكل امرئ إذا كتب « مذكرات » تحدث عن مثل هذا وأضعافه ، ولا يعاب ذلك ولا يذم ... ولعل حديثنا جرى على قلم صاحب « مذكرات واعظ أسير » من رواد مسجد المنيرة — على أيامه أطيب التحيات — وهؤلاء الرواد كانوا من غير شك يؤلفون مدرسة إسلامية متواضعة تحدث الناس عنها هنا وهناك ... أما وصف المؤلف نفسه بأنه خطيب وبأنه عظيم الجهود وبأن له أتباعاً وأنصاراً ، فحديث مصنوع أو موضوع !

وآلم السيد شاهين ما جاء فى خاتمة الكتاب من تحايا الشعراء والأدباء للمؤلف بمناسبة الإفراج عنه والفرحة بعودته إلى حياة الحرية والانطلاق ، وشاء أن يعبر عن ألمه بهذا الحكم الصارم — أو الوارم — : « فسائر هذه التقريظات غاية فى التفاهة والثناثة » ومن السهل على كل إنسان أن يصدر مثل هذه الأحكام العامة التى ينقصها الرشد والتبصر . ولعل الكاتب لم ينس أن العرب اختصروا الطريق فى حكمهم على القرآن المجيد فقالوا إنه « أساطير الأولين » ! ... ومن المؤسف مرة أخرى أن أذكر الشيخ شاهين بأن هذه التحايا لم تكن تقريظات ، ولم يستكتبها أستاذ من طلبته كما زعم متجنيا ، بل هى صور عواطف ومشاعر لإخوة كرام سبقوا بها قبل ظهور الكتاب بشهور ونشر أغلبها ، وأصحابها لهم مكانتهم الأدبية وماضيهم الشعرى ، ولذلك عنوت بعنوان « تحية وذكرى » ، ومن الطريف — وليس مما يعاب كما توهمت — أن تسجل المواطف المتبادلة بين التلاميذ الأحباء والأساتذة الأوفياء — وبعد النظر عن غير هؤلاء فهم كالهباء — ... وهل يعد غاية فى الثناثة والتفاهة قول أحد المحبين :

عفواً إذا زل مما قلته قلمى	برغم أن جنا زلاته الخطر
أوخذت ظلما وهذى رحمة سبقت	من أن تؤاخذ عدلا أيها القمر

وهل يعد غاية فى التفاهة والثناثة قول الثانى :

لبيك لو قبل المعاند فدية	أو لم يزعه ضميره المتغابى ؟
إنى لأدخر الثنــــاء لعالم	لاقى الصعاب بعزمة الوثاب
متدرعا بالصبر ، لا متراجعا	فى الحق ، أو مستهدفاً لمتاب

لقد أبعدت أيها الصديق ، وحملت هذه التحايا مالا تطيق !

وكبرى الكبائر عندى أن يعتبر الشيخ شاهين دفاعى عن الأزهر الشريف المعمور « هفوة » ! كبرت الكلمة منك أيها الصديق ... الأزهر الذى رضعت لبانه وتمتعت بخيراته وسعدت بكنوزه وعلوت باسمه ينال منك هذا الجزاء ؟ .. ثم أنت

لا تقتصد فى النقد ، ولا تكتفى بالتوجيه ، ولا تقنع باللوم ، بل تجور وتجور ، فتنال جبهة الأزهر النبيلة بما تشاء ، ثم تسرف فتقول وبئس ما تقول : « ألا إنه قليل للأزهر أن يلام ، وقليل لرجاله أن يتهموا بالضعف والتدليس وحب الدنيا ، وإذا كانت فعلتهم فى النكر ما هى ، فإنه لأنكر منها أن يدافع عنها ويوقف إلى جانبها » !!

أهذا كلام يقال ، ومن أزهرى ، ومن رجل يعمل تحت اسم الأزهر الشريف حتى اليوم ؟ ... دون ذلك يا صاحبى وتفترق طريقانا ... ثم إن هناك فرقا بين « الأزهر » و « الأزهريين » يا صاحبى ، فالأزهر معنى وفكرة ورسالة وتاريخ له جلاله وهيبته ، والأزهريون قوم يجوز عليهم الخطأ ، إذ ليسوا بمعصومين ، وإذا كان فيهم من فرط ، ففيهم أعلام جاهدوا ولا زالوا يجاهدون ، ومن الكفران أو الطغيان تعميم الحكم على الجميع بهذه الصورة القاسية ، وكدت أقول «الغابية» ومعذرة إليك أيها الصديق ، فقد فتحت الباب !

ومن الذى قال لك إننى « أيدت » الأزهريين جميعا وبلا استثناء وعلى طول الخط ؟ .. ألم أنتقد شيخ الأزهر الأسبق على موقفه من اعتقالى ؟ (ص ١١) و (ص ٢٥) .. ألم أسرد رأى شاب ثائر فى علماء الأزهر وموقفهم من المحنة بعبارته الشديدة المكشوفة (ص ٢٨) ؟ ... وحتى فى دفاعى عن الأزهر والأزهريين قد أشرت إلى بعض العيوب الموجودة فى البيئة الأزهرية وذكرت أسباب ذلك ودوافعه ، ولما تطاول القول فى ذم الأزهر بلا إبقاء قلت (ص ٩٨) : « إن هذا لا يليق ، وليس من مصلحة أحد ، وليس هذا أوان الطعن ، والأزهر يجب أن يصان عن التحطيم والتهديم ، وحبذا لو تركنا أخطاء الأزهريين لنقدة الأزهريين ، ويجب أن نتذكر أننا لو جردنا الأزهر من كل حسناته لما فقد المعنى الإسلامى العظيم الذى يجعله حصنا يخيف المارقين »

ثم تأتى أعجوبة الأعاجيب ، وهى أن يعتبر الشيخ شاهين تفسيرى رثاء المتنبى لشبيب العقيلى بأنه « هفوة أدبية » ولست أدرى أينا الذى هفا ، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ؟ والحكم هنا هم القراء ، فليطالعوا كلامى فى كتابى وكلامك فى تهجمك . وليروا رأيهم .. إن تفسيرى لرثاء المتنبى على الوجه الذى أوردته ليس « تأويل نحاة » ولكنه ذوق أديب وفن بصير وحديث تاريخ ، فعد إلى دارسى المتنبى إن شئت لتفهم ، واقرأ ما كتبه الجارم فى « الشاعر الطموح » من هذا الموقف بالذات لتعرف معنى الرثاء هنا على وجهه الذى أريد به

لقد فر المتنبى إلى مصر ، والفار يركب الصعب من الأمور ، وقد حسب المتنبى كافورا قبل أن يراه أشياء فلما رآه لم يجده شيئا ، ولكنه أصبح فى حماه وتحت سلطانه ، فلير حسنا ما ليس بالحسن ، وليمدح العبد الخصى الذى لا تعاب ذات عبوديته ، ولكن يعاب عليك وهو عبد بين أحرار ، وليسخر به كما يسخر الناس قائلين « يا مولانا الأستاذ » .. يا سيدنا المدير ، يا ولى نعمتنا ، ولعنة الله على زمان يتولى السيادة فيه العبيد .. وشاهين يتخذ من مدح المتنبى لكافور شواهد على عظمة كافور ، فما رأيه فى أهاجيه التى خسف بها كافورا إلى أسفل سافلين ؟.. ما رأيه فى هذه الأهاجى التى جعلت العبد الخصى أضحوكة فى كل فم ؟ .. وهل بعد قول المتنبى هازئا : «لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب» ؟ .. وماذا يقول الإنسان عن « الأضحوكة » من الناس أو الحيوان غير هذا ياشيخ ؟..

وهلا أدركت مبلغ سخرية المتنبى فى قوله لكافور :

عدوك مذموم بكل لسان ... ولو كان من أعدائك القمران

نعم ولو كان « القمران » من أعداء كافور لوصفا بالذم ؟

ومن ؟ .. من كل لسان .. ياسلام ياسلام ! .. أبعد هذه سخرية ؟

وسقط الشيخ سقطته حين توهم أن المتنبى أطال المديح فى شبيب بعد قتله ليرى الناس أن كافورا كان ينازل خصما قويا وأنه كان أقوى به فتغلب عليه وقهره .. إنما يصح هذا فى الأذهان يافلان لو كان كافور نازل شبيبا فى معركة ، أو صاوله مصاولة الأنداد ، ولكن لعلك لا تعرف أن كافورا قضى عليه بأسلوب الخسة واللؤم ، فدس عليه من سمه ، وتلك خطة الجبناء ، وذلك حيث يقول المتنبى :

وقد قتل الأعداء حتى قتلته ... بأضعف قرن فى أذل مكان

وأرجو أن تتمهل حتى تدرك مبلغ التعريض بكافور فى قول المتنبى عن شبيب :

وما كان إلا النار في كل موضع ... تثير غبارا في مكان دخان
فنال حياة يشتهيها عدوه ... وموتا يشهى الموت كل جبان

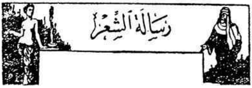
إن التعبير ينطق صارخاً: يا كافور، أيها الجبان، إنك لن تنال شرف الميتة التي ماتها عدوك، فأين أنت منه يا عدو البطل الراحل؟

ويصف الشيخ شاعر العربية المتنبي بأنه «مداح فقط» وما أثقل كلمة «فقط» هذه .. فأين حكمة المتنبي إذن، وأين خبرته بالنفوس، وأين تصويره للطبائع البشرية، وأين أحكامه الدقيقة العميقة على الحياة والأحياء؟ .. وثالثة الأثافي أن يصف المتنبي بأنه «ضيق الباع»!.. ما شاء الله! .. رحم الله المتنبي يوم جلجل بصوته فردد أبياته التي اختتمها بقوله:

فيا موت زر، إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل!

أما بعد، فللنقد أصوله وقواعده، إذا توافرت فيه وجب الخضوع له والرجوع إليه، وإذا عدمها كان تطاولا أو جهلا؛ ولست أدرى مبلغ القواعد التي استند إليها أو نهض عليها نقد الكاتب الصديق. بعد ما قدمت من حديث وقل سلام!

أحمد الشرباصي



شعلة المجد

مرثية فقيد الوطن المرحوم الدكتور عزيز فهمي

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

خل العزاء فما يفيد عزاء ... ساد الظلام وغامت الأضواء
الشعلة انطفأت، وكان وراءها ... المدلجين الحائرين رجاء
خل العزاء ودع لدمعك سيله ... متدفقا، فهنا يطيب بكاء
خل العزاء فلست تملك منطقا ... متماسكا إن هبت النكباء
الشعلة انطفأت، وأية شعلة ... كانت؟ تبارك نورها الوضاء!
صك النعي مسامعي فأخالني ... شبحا تطير بلبه الأنباء
مات العزيز، فات جيل كامل ... المجد تتبع خطوه العلياء
لهفي على الآمال يصدع ركنها ... قدر، ويهدم أسهن قضاء
يا راقداً في حفرة محصورة! ... كانت تضيق بروحك الأرجاء
أي المواهب فيك أبكي إنها ... يمنا بحصر كالها الإحصاء!
الشاعر الحي الشعور، نشيده ... من قلبه ذوب ومن إعانه الإيحاء
والكاتب العذب البيان ترسلا ... يزهو بسحر بيانه الإنشاء
والمدره الطلق اللسان مدافعا ... لا الجاه غايته ولا الإثراء
والنائب الحر العقيدة هاتفا ... بالحق لا ضعف ولا استخذاء
تخذ الصراحة مبدأ وعقيدة ... لم توحها حزبية عمياء
وطنية تسمو على أمثالها ... ويكل عن إدراكها القرناء
ومجاهد ثبت الفؤاد مكافح ... لم يثنه سجن ولا إيذاء
لهفي على تلك الخلال تضيمها ... في لحظة سيارة رعناء!
عوجلت والوطن الحزين بحاجة ... لمواهب لم تذكها الأهواء
شقت عليك جيوبهن حرائر ... وبكى لهول النكبة البؤساء
كم أدمع كفكفتها، ومصائب ... واسيتها! والنبل فيك ثواء
تسعى إلى الخير العميم مطاطئا ... هاما، فلا زهو ولا استعلاء
كنت الشباب مجملا برزانة ... والمكرمات يزينهن حياء
كنت الإخاء التبر أصفى جوهرا ... وأعز ما صدق الوفاء إخاء
حلو الفكاهة سمحة وطبيعة ... ما في خلالك صنعة ورياء
أدب كمؤتلق الضياء عرفته ... وشمائل علوية سمحاء
وإذا دعتك الحادثات تلقفت ... يدك الدعاء، فلا يخيب دعاء
متقدما للموت لا متهيبا ... والموت عندك صنوه الإبطاء
ما زلت تسبقه إلى حوماته ... حتى طفت في الغفلة الهوجاء
فذهبت يا زين الشباب رواية ... للناس أروع ما روى القدماء
كانت حياتك نفحة علوية ... حسدت على النعمى بها الشعراء
ما طال عمرك في الحياة وإنما ... طال التحدث منك والأصداء

أو بعد أن لجت بنا الظلماء ... واستبهمت في الظلمة والجيناء
وتحطمت في الصخر كل سفينة ... وتناثرت في اللجة الأشلاء
وتألب الموج الغضوب فلا ترى ... إلا جبالا ساقها الدأماء
لا الشط وضاح المعالم مشرق ... أبداً، ولا تتكشف الأنواء
نجد العزاء! ونحن أعجب صورة ... لا نحن أموات ولا أحياء
الشعلة انطفأت، وأية شعلة ... تهب الضياء، وما لها أكفاء!
خل العزاء فنحن في هول طغى ... في كل أفق محنة وبلاء

نشكو الصبابة فى هوى أوطاننا   وقلوبنا عصفت بها البغضاء !
متنابذين وحولنا أسد الشرى   قد حددت أنيابها الزرقاء !
متغافلين عن الخطوب وقدسمت   أشباحها الجنية السوداء !
سبعون عاما لم يعظنا هولها   أبداً ، ولم يتنبه الحكماء
نحن الأسارى فى القيود نظنها   حليا فتأخذنا بها الخيلاء
ماذا كسبنا بعد طول جهادنا ؟   الكسب غرم ، والجهاد هباء !
حرية الوادى رواية ساخر   كل الفصول شبيهة وسواء !
يا مصر حظك فى الرجال مرزأ   لا كانت الأدواء والأرزاء
أو كلما قدمت خطوة ظافر   عادت تقهقر خطوك الشحناء !
أو كلما استكملت عدة مؤمن   بالحق قص جناحك الأعداء !
يا مصر حظك عاثر ، وعثاره   أن ينطوى أبناؤك الأمناء
كان « العزيز » بطولة مذخورة   لغد ، ففات به غد ورجاء
قل النظير له وما أقصى المدى   حتى يلوح مع الغد النظراء !
يا أمتى ! يا أمة الألم الذى   بلغ المدى ، لا مسك الضراء !
مذ اختلفنا فى الجهاد طوائفا   ما ضمنا فى وحدة زعماء
حتى فقدت عزيزك الحر الهوى   فتوحدت فى النكبة الأنباء
يبكونه بدم القلوب موسداً   نعيت به الحرية الشماء
كان الإباء مجسدا فى رقة   فثوى مع الخلق الرقيق إباء
كان الكفاح مبرأ ومنزها   فمضى المكافح والضمير براء
للحق عاش ، وفى سبيل قيامه   مات المنافح عنه وهو فداء !

أأبا شهيد الحق إن فجيعة   نزلت بساحك خطبها مشاء
فى كل عين دمعة مهراقة   وبكل قلب لوعة ورثاء
طوت المنون ذخيرة أعددتها   لم يرحم القلب اللهيف قضاء
للمجد أنت نذرته ووهبته   والنذر عند الله فيه جزاء
والمجد جسر متاعب رقدت على   جنباته الرواد والشهداء
أنجبت للوطن الكريم فتى له   فى المكرمات صحائف غراء
ورث الشجاعة عنك وهى عزيزة   فى الناس حين تجابه الآراء
ورث النزاهة عنك وهى يتيمة   فى الناس حين تفاضل الأسماء
يا باكيا من قلبه ذهب الأسى   بالناس حين أصابك البأساء
قلبى يذوب أسى على الطود الذى   هزت قواعد بأسه اللأواء
ترنو إلى الأفق البعيد وقد خبا   فى الأفق هذا الكوكب اللألاء
وتجيب زفرتك الحزينة أمة   محزونة فتعيدها الأصداء

حسن كامل الصيرفى

الأدب والفن فى أسبوع

للاستاذ عباس خضر

حول محنة الأدب :

أثار الدكتور طه حسين باشا فى « الأهرام » موضوع الركود الذى اعترى حياتنا الأدبية فى السنوات الأخيرة ، وذكر لهذا الركود ثلاثة أسباب قال إنه يقصر الكلام عليها وإن كان هناك غيرها ، أولها الظروف السياسية وما تأتى به من فرض الرقابة على النشر ، وقد استغرقت هذه الرقابة أكثر من خمس عشرة سنة فى أقل من ربع قرن ، والحرية قوام الحياة الأدبية الخصبة ؛ فإذا ذهبت أجدب الأدب وعقم التفكير

أما السبب الثانى فيسأل عنه الأدباء والشيوخ أنفسهم ويسأل عنه الناشرون معهم ، فكثير من الشباب يكتبون فلا يجدون قبولا من الناشرين ولا تشجيعا من شيوخ الأدب

وأما السبب الثالث فهو ضعف التعليم الأدبى فى مصر ، فالأدب يدرس فى المدارس والمعاهد والجامعات على نحو يحزن أكثر مما يسر ، وإنتاج الأساتذة ضعيف ، والمتخرجون فى أقسام اللغة العربية بالجامعات لا يعرف بعضهم كيف يبحثون فى كتاب الأغانى لأنهم لم يسمعوا بفهرست الأغانى الذى وضعه جويدى

وعندى أن أهم الأسباب فى محنة الأدب هذه الطبقة من رؤساء التحرير البعداء عن الأدب ، فقد كان يشرف على تحرير الصحف فى الأيام التى ترحم عليها العميد إذ كانت تتنافس فيها الصحف أيها يكون أشد عناية بالأدب — كان يشرف عليها أدباء أمثال أنطون الجميل وعبد القادر حمزة وحافظ عوض وأمين الرافعى ، ثم خلف من بعدهم « شميط ومميط و ... » ممن حرموا نعمة الطبع الأدبى وبعدوا كل البعد عن الثقافة الأدبية

وزعم هؤلاء أن القراء لا يريدون أدبا . لأنهم أنفسهم

لا يريدون أدبا .. والقراء مظلومون ، ففيهم الأدباء والمتأدبون ومن يحبون القراءة الأدبية ولو لم يكونوا أدباء ولا متأدبين

وتقدم إلى أولئك المشرفين على الصحف صنف من الشباب الأدعياء ببضاعة أقلها تافه ، وأكثرها قشور منزوعة من الآداب الأجنبية مع معالجتها بالتحوير والتشويه .. وهم يختارون لها العناوين المثيرة والصور المغرية ، ويتقبل رؤساء التحرير هذه البضاعة ليجتذبوا بها القراء

وهم فى ذلك كمنتجى الأفلام والقصص التى يقدمونها ، بعضها كلام فارغ يؤلف هنا ، وكثير منها ممسوخ مما هناك . والمنتجون كرؤساء التحرير يبهر البريق أبصارهم ، وليس لهم بصائر ينفذون بها إلى جوهر الأدب والفن

ووراء كل ذلك أدب أصيل وملكات كامنة أشار إليها عميدنا فى مقاله الثانى إذ استدل بما كتب الكاتبون تعقيبا على مقاله الأول على أن فى أدبنا حياة كامنة تريد أن تظهر وخصبا مستترا يريد أن يملأ الجو المقلى سمة ورخاء ، مستشهدا بقول ابن الرومى :

وكين الحريق فى العود يخفى
وكمين الرحيق فى العنقود

ولا يحتاج ذلك الأدب المستتر إلا إلى من يبرزه ويثيب عليه وينظم الملاقات بين أصحابه وبين طلابه من القراء

« كتاب فن الأدب » :

المؤلفات التى تتناول دراسة فن الأدب تستمد أصولها وقواعدها من أدبنا العربى الموروث فى منثوره ومنظومه ، وتتحدث عن بلاغته عا رسمه الجاحظ وعبد القاهر

فأما أدبنا الحديث ، أدب القصة والمقالة وخطرات النفس فى استجابتها للحياة ، فمازلنا نستمد أصوله ونتعرف ملامحه فيما كتبه أدباء الغرب ونقاده ، إذ نحن نقتبس تلك الألوان الأدبية من الفكر الغربى فى نهضتنا الحاضرة ، ونعالج تجربتها وتمثيلها فى طابعنا الشرقى وأدبنا العربى

وقد تجلت تلك التجربة وذلك التمثيل فى بضعة كتب ظهرت من قبل ، منها « أصول الأدب » و « دفاع عن البلاغة » للأستاذ أحمد حسن الزيات بك ، و « فن القصص » للأستاذ محمود تيمور بك ، و « النقد الأدبى » للأستاذ سيد قطب ، ولعل هذه الأربعة هى المؤلفات التى يعتد بها فى هذا المجال ، فما أعرف كذلك غيرها

وهذا هو الأستاذ توفيق الحكيم بك يخرج لنا اليوم كتاب « فن الأدب » حافلا بالآراء والأفكار والاتجاهات التى تصور لنا معالم فن

كشكول الأسبوع

▫ احتجت السفارة الفرنسية لأن السلطات المصرية منعت البروفيسور ريليه كابيتان ، الأستاذ بمدرسة الحقوق الفرنسية ، من الدخول إلى مصر ، واعتبرت ذلك عملا غير ودى . . أما منع السلطات الفرنسية مدير معهد فاروق بالجزائر من السفر إلى مقر عمله فهو عمل لا يخالف روح المودة فى منطق الرقاعة الفرنسية

▫ وافق مؤتمر اتحاد البريد الدولى المنعقد فى بروكسل على استعمال اللغة العربية إلى جانب اللغات الأوربية فى النقاش بالمؤتمرات القادمة

▫ جاء من دمشق أن مصلحة الآثار السورية أصدرت بيانا ذكرت فيه أنها كشفت فى تدمر عن بناء مسرح مشيد على الطراز الرومانى ووجدت بعض أجزاء البناء سليمة

▫ أتمت مطبعة دار الكتب المصرية طبع الجزأين الثانى عشر والثالث عشر من كتاب « الأغانى » والدار على وشك إصدارهما ، ومما يذكر أن الجزء الثالث عشر كان قد تم إعداده قبل الثانى عشر ولكن رئى تأخيره حتى لا يصدر قبل سابقه

▫ قام الأستاذ أبو الفضل إبراهيم رئيس القسم الأدبى فى دار الكتب ، ببحث وصل منه إلى أن الجزء الحادى والعشرين من كتاب الأغانى مواده كلها موجودة فى مواطن متفرقة بأجزاء الكتاب الأخرى ، وعلى ذلك سيستغنى عنه فى طبعة دار الكتب

▫ وتصدر الدار قريبا الأجزاء ١٦ و١٧ و ١٨ من « نهاية الأرب » وقد رئى إصدارها معا لأنها فى موضوع واحد وهو السيرة النبوية الكريمة

▫ عثر القسم الأدبى أخيرا على نسخة من كتاب « نهاية الأرب » بخط مؤلفه « النويرى » الذى كان ناسخا . ومن الغريب أن هذه النسخة كانت موجودة فى دار الكتب ولم يرجع إليها فى تحقيق ما أصدرته الدار من أجزاء الكتاب

الأدب ، أو الأدب الفنى ، بوحى مزاولته الخاصة ، وبطابعه الخاص

فى هذا الكتاب أكثر من سبعين فصلا فى اثنى عشر بابا ، مثل باب الأدب والفن ، والأدب والدين ، والأدب والمسرح ، والأدب والصحافة ، وهكذا إلى آخر الأبواب ، ولعل المتتبعين لما يجرى به قلم الحكيم يعرفون أن كثيرا من هذه الفصول سبق نشره ، على أنها فى هذا الكتاب الحافل ملتئمة الشمل ، مستكملة الجوانب ، منسقة تنسيق طاقات الأزاهير

وقد أجمل المؤلف رأيه فى الفن والأدب ، فى تلك الكلمة التى صدر به كتابه إذ يقول : « الأدب هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة فى الإنسان والأمة ، الحامل الناقل لمفاتيح الوعى فى شخصية الأمة والإنسان ، تلك الشخصية التى تتصل فيها حلقات الماضى والحاضر والمستقبل . والفن هو المطية الحية القوية التى تحمل الأدب خلال الزمان والمكان . والأدب بغير فن رسول بغير جواد فى رحلة الخلود ، والفن بغير أدب مطية سائبة بغير حمل ولا هدف . ولقد كان همى دائما محاولة الجمع بين الرسول وجواده . ولقد رأيت دائما الأدب مع الفن ، والفن مع الأدب ، لهذا سميت هذا الكتاب : فن الأدب »

وهذا الكتاب يجلو لنا شخصية الأستاذ «توفيق الحكيم» وانعكاس نظرته على الأدب والفن ، ولكن الميزة الكبرى فيه أن هذه الشخصية تعبير رائع عن روح شرقية صحيحة فى نظرتها إلى مشكلات الحياة وقضايا الفن والأدب . وهو بهذه الميزة يرتفع عن أن يكون تكرارا أو اقتباسا لتلك الدراسات الأدبية المقررة بين الكتاب والنقاد الغربيين وغير الغربيين . وكثير من فصول هذا الكتاب لو ترجم إلى أية لغة أجنبية لبقيت له طرافته وجدته ، ولبقيت له دلالته على شخصية صاحبه « الحكيم » الأديب الشرق الفنان

وقد حوى الكتاب — على ما فيه من جد كثير — فصولا هى إلى التفكيه والترفيه أقرب ، ولكنها تطوى الحكمة والعبرة ، ومن أجمل هذه الفصول ذلك الفصل الذى تمثل فيه الأستاذ « الحكيم » أن « شكسبير » ظهر فى «مصر» اليوم ، مصريا ، لغته العربية ، وتراثه الأدب العربى ، ثم أخذ يفرش طريقه بالعوائق والمثبطات التى تعترض طريق الكاتب المصرى العربى الآن ، وختم ذلك الخيال اللطيف بقوله : « حقا لو ظهر « شكسبير » اليوم لكان فكره تبلبل ، وعقله تحير ، ولكان عمله أعسر ، وواجبه أكبر ، وعقباته أضخم ، ومجهوداته أضنى . من حسن حظه أنه ولد فى « إنجلترا » فى القرن السابع عشر ... »

عباس خضر



البريد الأدبي

١ — البيتان للمتنبي

كنت أطالع كتاب « نديم الخلفاء » عن حياة الحسين ابن الضحاك لمؤلفه الأستاذ عبد الستار أحمد فراج فلفت نظرى فى الصفحة ١١٧ هذان البيتان اللذان نسبهما المؤلف للخليع

بأبي من وددته فافترقنا   وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولا فلما التقينا   كان تسليمه على وداعا

فقد جاء فى الصفحة (٢٧٩) من الجزء الثانى من التبيان شرح ديوان أبى الطيب المتنبي لأبى البقاء العكبرى أنهما للمتنبي وقد قالهما ارتجالا فى صباه ..

وكذلك ورد فى جميع دواوين المتنبي

فما هو قول الأستاذ فراج ومن أى المصادر استقى نسبة البيتين للخليع ؟ هذا ما أرجو أن يشير إليه ولا يفوتنى أن أقدم بدى الأستاذ أهنئه على كتابه الممتع الطريف وبحثه الحلو الجديد مع إعجابي وتحياتي

٢ — الموشح لابن الخطيب

نسب الأستاذ عمر الدسوقى الأستاذ بكليـة دار العلوم فى الصفحة « ٤٤ » من الجزء الأول من كتابه « فى الأدب الحديث » الطبعة الثانية الأبيات التالية من الموشح المشهور

جادك الغيث إذا الغيث هما   يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما   بالكرى أوخلسة المختلس(١)

لابن سهل الإشبيلي عند كلامه عن المعلم بطرس كرامة وشعره ، والحقيقة أن البيتين المذكورين هما من موشح الوزير « أبو عبد الله بن الخطيب » قاله معارضة لموشحة ابن سهل الأندلسي ومطلعها

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر ، وخفق مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبس

والموشحتان موجودتان بكاملهما فى ديوان ابن سهل المطبوع فى مصر سنة ١٩٢٨ هذا ما لفت نظرى وأحببت أن أذكر به الأستاذ وفقه الله فى مجال العلم والتأليف

٣— إلى الأستاذ كامل كيلاني

قرأت أمس مقالك القيم المنشور فى الصفحة « ١١٤٩ » من مجلة « الهلال » فى العدد الخامس الذى أصدرته عن « أبى نواس » وقد جاء فى مقالك « بين شوقي وأبى نواس » ما يلى :

« قالوا : إن أمير مصر ، أعجب بمعارضة شوقي للبوصيرى فى قصيدته التى أسماها « طراز البردة » بمناسبة حج الأمير إلى الأقطار الحجازية

وقد مر الأمير على دار شاعره — بعد عودته من الحج — فأعجب بما رآه من بديع الزينة التى أنفق فيها شوقي ليظهر احتفاءه بعودة سيده فقال له الأمير :

« يا شوق لقد أعجبتني قصيدتك ، كما أعجبتني زينتك »

فقال شوقي الأبيات التالية

زين الملوك الصيد مر ببابي   كرما ، وباب الله طاف ببابي
يا ليلة القـدر التى بلغتها   ما فيك بعد اليوم من مرتاب
ما كنت أهلا للنوال وإنما   نفحات أحمد فوق كل حساب
لما بلغت الدول ليلة مدحه   بعث الملوك يعظمون جنابي
بدران : بدر فى السماء منور   وأخوه فوق الأرض نور رحابي

ثم

هذا ابن هانئ نال ماقد نلت من   حسب تدل به على الأحساب
قد كان يسعى للرشيد ببابه   فسعى الرشيد إليه وهو ببابي

هذه الأبيات فقط هى التى ذكرتها من الشوقية الخالدة .. فهل لك يا سيدى وأنت المعجب بأميرنا الخالد أن تزف إلى عشاق شعره القصيدة بأكملها .. نحن ننتظر منك هذا الأثر القيم على صفحات الرسالة الزاهرة ..فهل نحن بالفوز ما نريد

عبد القادر رشيد الناصرى

(١) ورد عجز البيت فى الديوان على هذه الصورة (فى الكرى أو خلسة المختلس)

التسول أمام بيوت الله

إن الذي لا ريب فيه أن التسول في مصر قد أصبح حرفة من الحرف الثابتة الدعائم، ومهنة من المهن التي لها قدرها وخطرها، فلا تكاد تسير في شارع من الشوارع، أو تخطو في ميدان من الميادين، أو تضع قدمك في مركبة من المركبات العامة حتى يفاجئك سيل لا ينقطع من المتسولين والمتسولات، كل يدعي الحاجة أو يتصنع البؤس أو يزعم الفاقة

ولو أن قطعان التسول قد اقتصر نشاطها على الشوارع والميادين والمركبات العامة إذاً لهان الأمر، ولكن هذه القطعان تأبى أن ترحم بيوت الله من بلائها، وتصر على أن تزاحم المصلين عناكبها دون أن تتفضل ولو بذرة واحدة من الحياء والخجل..

إننا حين نمر بمسجد مهم كمسجد الحسين أو مسجد السيدة زينب أو مسجد الإمام الشافعي بالقاهرة مثلا، وحين نمر بمسجد أبي العباس والأباصيري بالإسكندرية، وغير هذه المساجد في المدن الكبرى، لابد أن تقع أعيننا على قطعان التسول وقد اتخذت عتبات هذه المساجد أوكارا تنفث منها سمومها على المصلين في كل وقت من ليل أو نهار

وكأن المسئولين في مصر لا يكادون يفهمون أن هناك أجانب يزورون مصر، ويقصدون المساجد الكبيرة بالذات، ويعودون إلى بلادهم وفي مخيلاتهم صورة فظيعة لفوضى التسول في مصر، وإلا فلم يغمضون الطرف عن هذه الوصمة التي تلطخ جبين الوطن بالعار! إننا نرى هذه المناظر المنكرة فنتميز من الغيظ، وتعتزج في صدورنا الآلام والحسرات: ولكنا لا نستطيع أن نفعل شيئا لأننا لا نملك من الأمر شيئا

إذا كان ولاة الأمور يعجزون عن أن يطهروا مصر بأسرها من وصمة التسول، فلا أقل من أن يصونوا بيوت الله منها ليحفظوا عليها جلالها ووقارها!

رمل الاسكندرية نفيسة عبد اللطيف الشيخ

عبيد الناس:

بات كثير من الناس يخشون بعضهم كخشية الله أو أشد خشية، ويحرصون على إرضائهم وطاعتهم أكثر من حرصهم على إرضاء الله وطاعته.. مما زعزع إيمانهم، وأوهن عقائدهم، فاعتقدوا أن مصيرهم مرتبط بمصير هؤلاء الذين يخشون.. وأن حياتهم رهن إرادتهم، إن شاءوا أسعدوهم ورفعوا درجاتهم، وإن شاءوا نبذوهم فطردوا من جنة الخلد التي يوعدون!..

ما زال بيننا الكثيرون من عبدة الأصنام.. وأعتقد أنني أسيء إلى عبدة الأصنام إذا شبهت هؤلاء المارقين بهم.. يؤلهون الأشخاص، ويكادون يعبدونها من دون الله، ويخرون لها سجدا!..

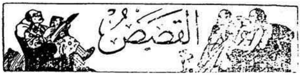
نسوا الله فنسيهم، وأنساهم أنفسهم، ونضب معين التقوى من قلوبهم، وزلزل الخوف أوصالهم، يعشون في ركاب ذوي الجاه، ويوتفقون كل جوارحهم على طاعتهم، يزينون لهم القبيح ويقبحون لهم الطيب، مردوا على النفاق، تعرفهم بسيماهم، وبأساليبهم، يخادعون الله ويخادعون الناس، ويحسبون أنهم مهتدون!..

يعبدون الله على حرف، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم، إذ يبيتون مالا يرضى من القول، ولو أنهم خشوا ربهم كخشيتهم أنفسهم لاستقامت أمورهم، وانصلح حالهم، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!.

عجباً لهم، أيخشون الناس والله أحق أن يخشوه!.

أين هم من الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم..

عيسى متولي
بنك مصر القاهرة



خمسة أعوام في عذاب

عن الإنكليزية

ليس في وسع إنسان مهما يكن شعوره بالفضل وبالترفع أن يفاخر بأنه لا يعبأ بالمغريات وبدوافع الشر أو بأنه يحتقرها . فالإنسان لا يعرف كم تتغير نفسه تحت أحكام المؤثرات

وإنى لأروى على سبيل الاستشهاد على صدق هذه النظرية القضية الآتية التي سمعتها من أحد رجال البوليس السرى في لوندرا

ماتت زوجة تاجر غنى لم يكن له إلا ولد واحد ، فتزوج من أرملة في منتصف العمر . وكان ابنه شابا فلم يرض عن هذه الزوجة . وكان يشتغل في غير المدينة التي فيها أبوه ، فامتنع عن مراسلته بعد هذا الزواج . ولكن الأب كان راضيا بهذا الثمن ، وهو غضب ابنه في مقابل تلذذه هو واستمتاعه مدة العام الذي بدأ بالزواج وانتهى بوفاته

ولأسباب لم تظهر قط كان الجزء الأخير من هذا العام كله ريبة وسوء ظن ودسائس في هذا البيت ، لأن الخدم الثلاث كن يرتبن في مقاصد الزوجة . وكانت أقدمهن وقد قضت في خدمة المنزل بضعة أعوام تمد نفسها في موضع الجاسوس على كل أعمال الزوجة . وقد كانت تنصت فسمعت زوجها يتوعدها عدة مرات بأن يغير الوصية ويحذف منها اسمها بتاتا . فكانت تجيبه بأنها تجد الفقر أخف عبئا من معاشرته على وفرة غناه

وكانت تلك الخادم تستدعى زميلتيها ليسمع ثلاثتهن مثل هذا الوعيد . وقد فهمن جميعا علة الخلاف بين الزوجين . فلما مات الرجل انتظرن أن تكشف الوصية لهن عن جلية أمر الخلاف

وقد كانت دهشتهن عظيمة عندما جاء المحقق وتبين أن الوصية تحرم ابنه من الميراث وتعطى الزوجة ألفي جنيه في كل عام وهي كل إيراده طول حياتها

وكان من الطبيعي أن تشعر الزوجة بالراحة والاطمئنان عند ما صارت مالكة لهذا الإيراد . وزالت الحزازة التي كانت تشعر بها أيام حياته . وبعد يومين من الوفاة جلست أمام مكتبها تكتب الردود على التعازى .. وقد فرغت سريعا من هذا الواجب ثم أخذت تقلب أوراق زوجها وهي لا تزال مبتسمة . ولكنها لم تكد تقرأ اثنى عشر سطراً حتى قطبت جبينها وعرتها دهشة ، لأن الذى كانت تقرؤه إنما هو النص الأخير لوصية زوجها ؛ وهو يحرمها كل شيء ويهب تركته كلها لابنه . وكان تاريخ هذا النص قبل أسبوع واحد من الوفاة ، وعلى الوصية توقيعات شهود من الأحياء . فجلست تفكر فيما سيؤول إليه أمرها لأن البقية الباقية من ذلك العمر ستكون حياة فقر مدقع . ولذلك كان الاغراء الذى تجد نفسها تحت تأثيره قويا جدا ، فهو ليس بين الشرف وبين انعدامه ، ولكن بين الغنى وبين الفقر . وكان عمرها إذ ذاك خمسين عاما وهي لا تستطيع التكسب بوجه من الوجوه . ورأت أنه إذا لم يكن أحد ليذيع أمر هذه الوصية فلماذا لا تلزم الصمت ؟

وحملت الوصية في يدها ومشت إلى الموقد ولكنها وجدته خالياً . وكانت من قبل ذاهلة عن ذلك وعن أن الليل كان قد انتصف . وكادت تمزق الوصية ولكن الخادم في هذه اللحظة دخلت ووقفت واجمة فسألتها : « ماذا تريدين ؟ »

ابتسمت الخادم ولم تجبها فقالت : « ما الذى تعنين ؟ »

فحاولت المرأة أن تضحك ولكنها لم تستطع . وقبل أن تتحرك أية حركة كانت الخادم قد اختطفت من يدها الورقة التي ستتركها في فقر مدقع فصرخت تلك صرخة يأس ، وحاولت أن تسترد الوصية

وعلى الرغم من التفاوت في السن فإن الخادم كانت أقوى المرأتين فاستطاعت التغلب على سيدتها . وتلت الوصية في هدأة ثم قالت بعد الفراغ من ذلك : « لقد فهمت الآن »

قالت الأرملة : « لقد وجدت هذه الورقة منذ دقيقة فقط وأردت أن ... » فقالت الخادم مقاطعة : « أردت أن تحرقيها لو كان فى الموقد نار »

ثم مضت فترة صمت قالت بعدها الخادم : «من حسن حظك أنى أكره المستروليم ابن سيدى المرحوم ، فإذا سلكت مسلكا حكيما فإنه لن يعلم أحد بأمر هذه الوصية »

سمعت المرأة هذه الكلمات فأثلجت صدرها لأنها كانت شديدة الخوف من الفقر ، فاستدعت الخادم وأجلستها بجانبها وعرضت عليها اقتسام الثروة بينهما وأن تدفع لها ألف جنيه مقدما

فلما تم الاتفاق على ذلك قالت الأرملة : « والوصية ؟ هل تمزقينها » فقالت الخادم : « كلا بل ستبقى معى إلى الأبد »

ورأت الأرملة أن خادمتها لا تقبل المناقشة فى الأمر فأذعنت.

ومن ذلك اليوم أصبحت الخادم هى السيدة الحقيقية فى المنزل فبدأت بطرد سائر الخدم واختارت آخرين ؛ وكان ثانى عمل أتته أن أحضرت ابنها إلى المنزل وأطلقت عليه لقب السكرتير لتلك الأرملة فكان يلازمها فى الصباح وفى المساء

صارت الحياة مؤلمة فى نظر السيدة لأنها أصبحت تشعر بعد إخفاء الوصية بأنها ارتكبت جريمة منكرة وبأنها باتفاقها مع الخادم قد وضعت نفسها فى مركز ذليل ، ولكنها احتملت حالتها خمسة أعوام فى صمت ؛ وفى بدء العام السادس ذهب الخدم ليقدموا الشاى إلى كبيرتهم التى يعرفونها أنها السيدة الحقيقية فعادوا يصرخون ويعلنون أنها ماتت

وظنت الأرملة أن الحظ عاد إلى الابتسام ؛ ولكن سرعان ما أخفق أملها لما أمرت ابن تلك الخادم بأن يترك خدمتها فتنكر لها وهددها بإظهار الوصية

ولما رأت أن حالة الذل ستبقى كما هى بل ستزداد لأن خضوعها لهذا الرجل سيكون أشد إيلاما لنفسها من خضوعها لأمه - لما رأت ذلك ملكها اليأس وذهبت إلى إدارة البوليس : ولكن جهلها بالقانون جعل رجل البوليس يضحك منها لأن الوصية التى تخشى شرها قد بطل مفعولها بعد وفاة ابن زوجها عن غير وارث وأصبحت هى من تاريخ الوفاة مالكة للتركة

كانت إذن فى الأعوام الثلاثة الأخيرة تقبل الذل خشية من ظهور وصية تجعلها هى المنفردة بالمال

ع . ا